إدفو...

حضارة لها تاريخ

محمد فتحي محمد فوزي

الناشـــر:-
الجمعية المصرية لرماية المواهـــب
٤٣٦ شارع الترعة البولاقية شبرا/مصر

الأنحراج الفنى

للصحفى / عادل فؤاد

إهداء

" ربنا عليك توكلنا واليك انبنا واليك المصير "

اهدى هذا الموضوع " ادفو .. حضارة لها تاريخ" الذى تدور تسجيلاته عن الاحوال العلمية والمعمارية ، والثقافية والدينية والاجتماعية والفنية فى اقليم " ادفو " من محافظة اسوان بجنوب صعيد مصر ،منذ العصور السحيقة وحتى العصر الاسلامى ، موضحا تفاعل الادفوى مع بيئته ، واهم الشخصيات التى أثرت المنطقة فى شتى مناحى الحياة ، ففجرت ينابيع الحضارة ،وسطرت صحف التاريخ ـ الى الابناء تمجيدا لهم ، وحفز الابناء من تراث الماضى المجيد الذى نستمد منه الحاضر العريق ، ونستنير به للمستقبل التليد ومن اجل مصر حبنا الاكيد ، نطلع عليه كلما نضب الدفيق وطلبنا المزيد ، وندعوه تبارك وتعالى التوفيق والعون على الطريق .

ادفو ـ محمد فتحى محمد فوزى محمود

" الكروم ـ شارع التحرير"

إدفو عبر التاريخ

في قافلة الزمان تسير " ادفو " العامرة من شمالها الى جنوبها ، يفوح منها عبق التاريخ الزاخر بالحضارات القديمة والحديثة ، والذى يكون بمثابة فنار المستقبل لابنائها . وعندما يأتى المساء تتقلد ادفو حليها الفسفورية المتلألئة على صفحات مياة النيل الخالد ، ذلك الشريان الحيوى النابض على ارض مصر الفيحاء ، يحدوها الامل فى الرخاء اعتمادا على سواعد شبابها المؤمن بالعطاء من اجل

[redacted]

ان ادفو كانت اقليما يعتبر قائما بذاته منذ القدم العصور ، فقد كانت فى عصر ما قبل التاريخ ، عاصمة لمملكة الوجه القبلى محتوية على " نخب " العاصمة السياسية ، و " نخن " العاصمة الدينية وكانتا متقابلتين على ضفتى النيل عند " الكاب الحالية " شمال ادفو . احتلت مدينة " نخب " القديمة منذ القدم مكانة عالية بين مدن مصر الرئيسية ، حيث كانت عاصمة مصر العليا ما قبل التاريخ ، ثم اصبحت عاصمة الاقليم الثالث لها طوال فترة تزيد عن الثلاثة الاف عام ، و " نخبت " هى احدى الالهات الحاميات ، وهى الالهة الرئيسية للمدينة ، حيث عرفت باسم " نخبت البيضاء "

* النيل العظيم بادفو .

التى مثلت اما على هيئة طائر العقاب ، او على شكل امـــرأة ترتدى تاج الوجه القبلى ، وكانوا يعتقدون انها تساعد فـــى الولادة الملكية ، وعلى هذا فقد اطلق الاغريق على مدينـــة " الكاب " اسم " الپتامسبوليس " وهى بقرية "المحاميـــد" بشرق ادفو ، ويعنى الاسم السابق مدينة الالهة " البتـــا " وهى المقابلة لـ " نخبت " عندهم ، وتحتوى مدينـــة الكاب على آثار من مختلف العصور اهمها :

- مقابر الاشراف بالكاب وترجع الى عصر الدولة الحديثـــة ١٥٥٠ – ١٠٧٠ ق . م ، وتقع هذه المقابر الى الشمـــال الشرقى من المدينة الاثرية على بعد ثلاثمائة مترا مـــن الطريق العام ، ولقد نحتت جميعها فى الصخر الرملـــى واهم ما بها : " مقبرة بارحرى – مقبرة احمس ابن ابانا – مقبرة سبتاو – مقبرة رنسى ."
- معبد امنحوتب الثالث ، ويقع الى الشرق من مقابـــر الاشراف وعلى بعد كليو متر تقريبا ، ولقد اقام هـــذا المعبد " امنحوتب الثالث " للالهة " نخبت " سيدة مدخل الصحراء ، واستخدمه المسافرون كمكان للحلاة ، اثنـــاء الذهاب فى طريقهم لمناجم الذهب وهذا المعبد صغيـــر الحجم مبنى من الحجر الرملى ، وتتقدمه صالة مهدمـــة وعلى واجهة المدخل يشاهد امنحوتب الثالث وهو يقـــوم بطقوس عيد الحب .

★ من مظاهر الاشراف بالكاب .

- هيكل تحوت المعروف بالحمام : بناه الكاهن الاعظم المدعو " سيتاو " للالهة " نخبت " فى عصر الدولة الحديثة ابان حكم الرعامسة وذلك تمجيدا للالهة " تحوت " اله الحكمة عند قدماء المصريين ولرمسيس الثانى نفسه كاله .

- المعبد البطلمى : يقع الى الشرق من المقابر الصخرية بحوالى نصف كيلو متر ،ويعتبر ايضا من المعابد الصخرية ، وقد خصص لعبادة الالهة " نخبت " وقد تم انشاءه فى عهد بطليموس الحادى عشر المعروف بالاسكندر الاول .

واما " نخن " القديمة العاصمة الدينية التى خرج منها موحد مصر الملك " نارمر " او " مينا " فهى موجودة بالكوم الاحمر بقرية البصيلة بادفو .

وهكذا تدور الايام دورتها مع " ادفو " ذلك الاقليم التابع على الضفة الغربية للنيل متوسطا المسافة بين اسوان والاقصر والكائن فى العصور القديمة بمثابة النقطة الاخيرة للحراسة المصرية على الحدود النوبية وعاصمة الاقليم الثانى من اقاليم الصعيد ، الذى اسماه المصريون " وتس حسور " ، اى عرش " حورس " نسبة الى معبود المنطقة الاله " حورس " .

وبعد عصر ما قبل التاريخ وعصر الاسرات ، اصبحت العاصمة " بحدت ـ ادفو " التى كانت قديما عاصمة المقاطعة الثانية فى مصر العليا ، ولكن لم يبق بها الآن من آثار العهود السابقة لعهد البطالمة شىء يذكر ولو ان بعض النعوش تدلنا على ان " امختب " المهندس الذى صمم هرم " زوسر " المدرج بسقارة اقام معبدا فى هذه المدينة . والمعبد القائم بها الآن يرجع الى عهد البطالمة ، وقد بدأ بوضع اساسه فى ٢٢ اغسطس ٢٣٧ ق . م على عهد بطليموس الثالث ، واتم بناءه بطليموس السابع ، وافتتح يوم ١٠ ديسمبر عام ٤٢ ق.م بحفل عظيم ، ولكن الفتن والثورات الدامية التى تخللت حكم البطالمة فى مصر العليا خاصة كانت تعوق العمل فيه بين حين واخر حتى تم بناؤه فى العاشر من ديسمبر بعد حوالى " ١٨٠ " سنة من وضع اساسه وكان هذا المعبد خاصا بالاله " حور بحدتى " اى حور الادفوى سيد ادفو، وذكرت على جدرانه قصة " حورس " وما قام به فى سبيل الانتقام من " ست " الشيطان وانتصاره عليه فى موقعة حاسمة ، فكانت مصر من نصيبه ، وقد خاض غمار عدة مواقع على الماء فى دندره والفيوم وبلاد النوبة وتغنى بانتصاره كهنة معبد ادفو ونساء بوصيرى فى الدلتا ، وكانت تعبد معه حتحور سيدة دندره .

الجوانب الفنية والمعمارية للمعبد

•• الصرح :

يقع عند مدخل المعبد صرح مرتفع يرى على واجهة برجية منظر لبطليموس الثالث عشر فى وضع تقليدى يمثله مقبلا على الاعداء لذبحهم ثم يظهر الفرعون فى اعلى هذا المنظر لتقديم القرابين الى حورس سيد ادفو وحتحور وابنهما " حور سماتاوى " موحد الارضين .

•• الفناء :

يؤدى باب الصرح الى فناء مكشوف تحيط به الاعمدة من ثلاثة جوانب ، وكان يقوم فى وسطه المذبح الخاص بتقديم القرابين وفى جانب نجد تمثال حورس بهيئة الصقر ذى التاجين ويلاحظ ان المناظر المنقوشة على الاعمدة لم يذكر بها اسم الفرعون الذى يتولى تقديم القرابين بل ترك ذلك للعبدة حينما تهدأ الاحوال فى البلاد ويستقر احد الملوك على العرش فيكتب اسمه هناك وقد زينت الجدران الواقعة خلف الاعمدة بمناظر حربية ودينية من عهد بطليموس العاشر .

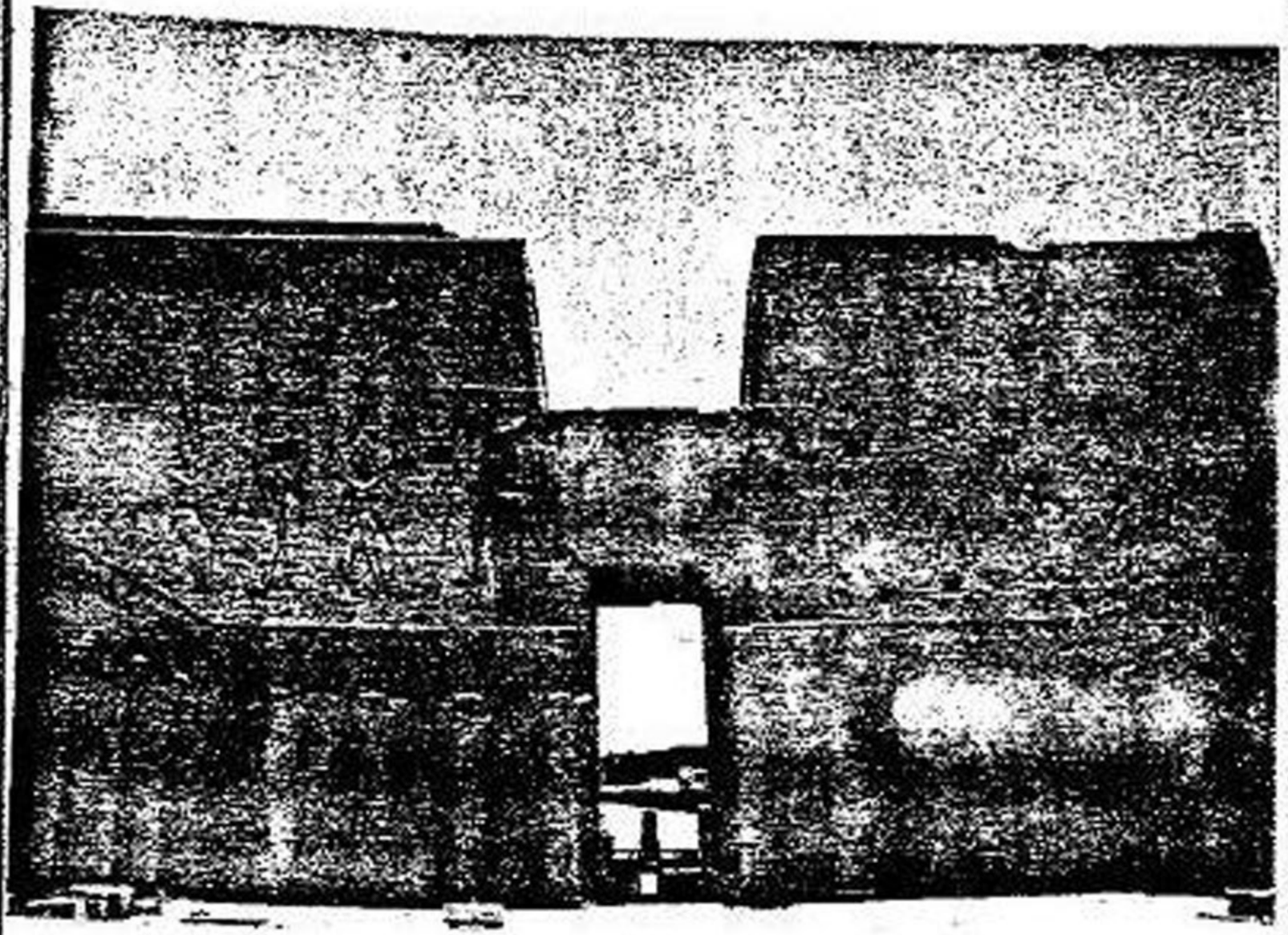

* منظر عام لمعبد ادفو " الفناء "

•• الدهليز :

يقوم فى الدهليز الواقع خلف الفناء اثنا عشر عمودا لها تيجان مزدحمة بالاشكال النباتية وقد مثلت على سقفه مناظر فلكية ونرى على الجدران بطليموس التاسع يقوم بالطقوس الدينية وتقديم القرابين والهدايا الى آلهة ادفو . وعلى جانبى المدخل غرفتان ذكر على جدرانهما ما كانت تستعمل من اجله ، فخصصت الغرفة اليمنى لحفظ الكتب المقدسة اما الغرفة اليسرى فكانت خاصة لحفظ الانية المعدة لطقوس التطهير وظهر على جدرانها " حورس " و " تحوت " يصبان ماء الطهور على الفرعون . وبالجدار الايمن لفناء الدهليز باب يؤدى الى ممر يحيط بجميع اجزاء المعبد ، وعلى الباب المؤدى الى بهو الاعمدة يرى بطليموس الرابع حاملا صورة " ماعت " آلهة الحق لتقديمها الى مركب الشمس التى يقودها الاله حورس .

•• بهو الأعمدة :

تشبه المناظر المنقوشة على جدران المعبد نفس المناظر الموجودة بالدهليز وتوجد غرفة جانبية على اليمين تؤدى الى درج صاعد الى سقف المعبد ، ومناظر الموكب اثناء صعوده ويظهر الفرعون فى المقدمة يليه

الكهنة ويمثل الموكب عند نزوله على جدران الدرج من ناحيته اليسرى .

•• قدس الأقداس

تسبق المحراب حجرتان متتابعتان ويوجد على جانبي الحجرة الاولى منهما ممران يؤديان الى الدرج الصاعد ويقع على يمين الحجرة الثانية بهو صغير للقرابين والى يسارها غرفة جانبية خصصت للاله " مين " المعروف بالـه التناسل ، وعلى الحائط الايمن للمحراب نرى مناظر بديعة تمثل بطليموس الرابع يفتح محراب " حورس " ويقف خاشعا امام الاله ويقدم البخور لوالديه بطليموس الثالث وبدينس وامامه المركب المقدسة الخاصة بحتحور ، ويقع عند الجدار الخلفي ناووس من عهد " نقطائب " احد ملوك الاسرة الثلاثين ويحيط بقدس الاقداس ممر تقع عليه عشرة غرف جانبية كانت خاصة بالمخازن واقامة الطقوس الدينية .

•• الممر الداخلي للمعبد :

نعود الى بهو الاعمدة ثم نخرج الى الممر الداخلي المحيط بأبنية المعبد فنجد على الجانب الايمن الملك امام آلهة ادفو وعلى الحائط الخلفي أنشودة الاله .

وتظهر المناظر الخاصة بصراع حورس مع اعدائه على الجانب

الايسر من المعبر ، وقد اخذ الاعداء اشكال التماسيح وجاموس البحر ، وفى الجانب الشرقى من المعبر المدرج يؤدى الى مقياس النيل .

•• بيت الولادة :

" المامیزی " وبيت الولادة تسجل على جدرانه صنع الجنين فى بطن امه على يد الاله " خنوم " الذى يقوم بصنع الاطفال على عجلة الفخار ، وايضا تسجيل مساعدة الالهة للامهات فى وضع اطفالهن واجنائهن بسلام . وفكرة بيت الولادة لا توجد سوى فى المعابد البطلمية ولم تكن جديدة على الفراعنة ، حيث سجل ملوكهم قصص ولادتهم الالهية على جدران معابدهم ، مثال ما قامت به الملكة " حتشبسوت " فى معبدها فى الدير البحرى حيث سجلت قصة ولادتها الالهية عليه .

الا ان البطالمة خصصوا لهذه القصص مبان مستقلة ليؤكدوا نسبهم الى الالهة المصرية وشرعيتهم فى حكم مصر وهى ما نطلق عليها بيوت الولاده او المامیزی .

ويسجل داخل بيت الولادة بمعبد ادفو الالهة حتحور وهى ترفع ابنها " حورس " فى اوضاع مختلفة ، وكما توجد ايضا مناظر للحتحورات السبع ـ وحتحور هى الهة الفرح والحب والجمال والسرور وزوجة الاله حورس ـ وعملية

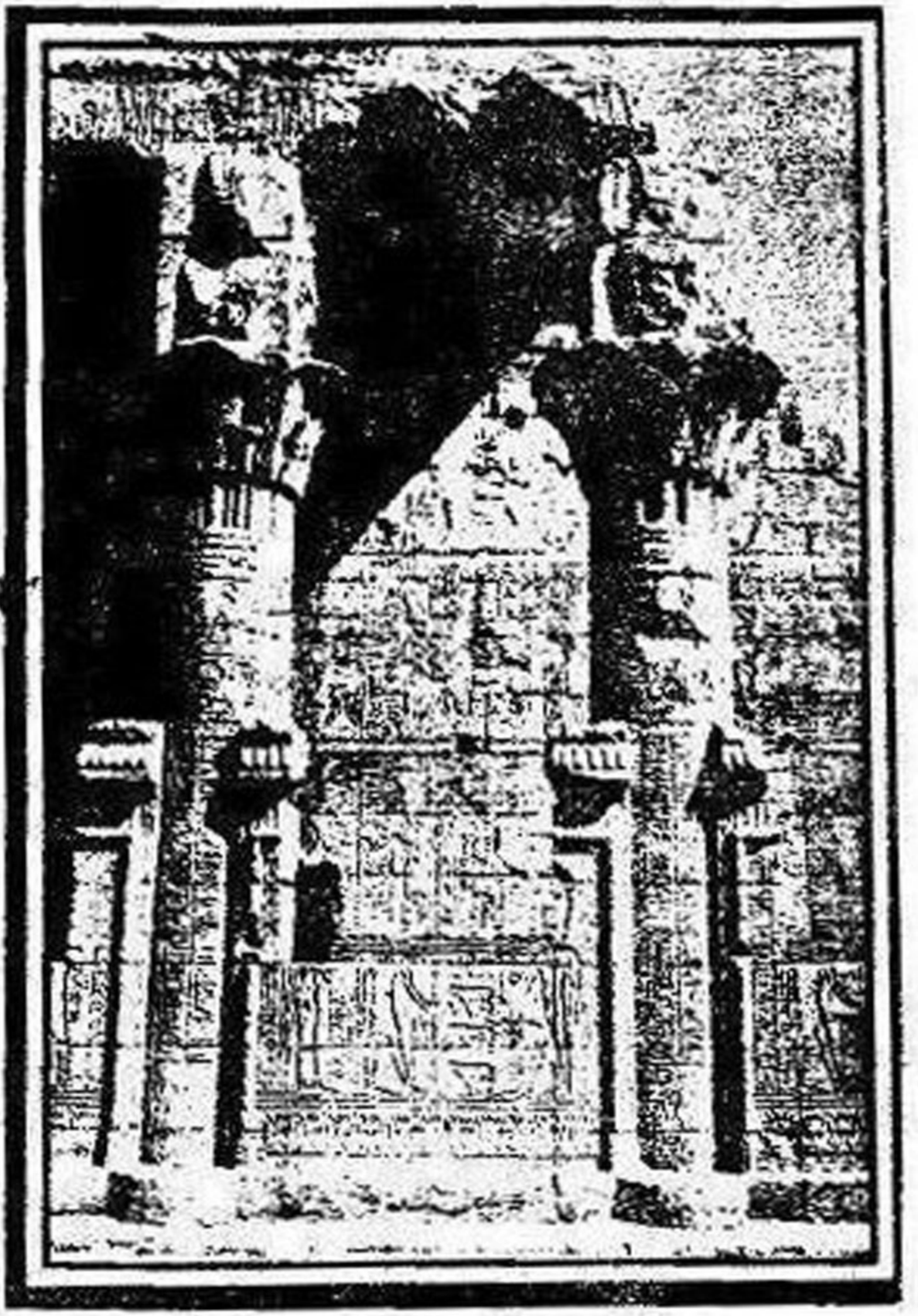

* المعاصرى " بيت الولاده بالمعمد "

الولادة الالهية اصبحت فيما بعد نموذجا يحتذى به خصوصا لبعض الملوك الفراعنة الغير شرعيين فى الجلوس على عرش مصر ليكتسبوا الشرعية كما ذكرنا من قبل .

وفى النهاية يحيط بالمعبد سور ضخم من اللبن ، كان يضم ايضا مساكن الكهنة والموظفين ، ومكاتب ادارة المعبد ومخازن مختلفة ، ومصانع ، ومخبز ، وحدائق ، وبحيرة مقدسة تغذيها مياه الرشح من النيل ، كانت تؤدى عليها احتفالات فى ايام معينة ، ثم مدرسة ومكتبة فى بعض الاحيان على الاقل وبذلك كان المعبد اشبه بمدينة صغيرة ، ومع انه كان قبل كل شىء بيت الاله ، فقد كان فى نفس الوقت مركز نشاط اقتصادى وعقلى ، كما كان المركز الذى نشأت فيه التمثيليات الدينية والذى ظل يشرف على ادائها .

هكذا نجد معبد ادفو ،وعودا على بدء ، ومنذ وقت مبكر حمى المصريون مدنهم الهامة ذودا عن حياضهم ، وعما افاءت عليهم الحضارة من خيرات ، من اعتداءات البدو الطامعين فى خير ما كسبوا واقدم ما يعرف من مدن محصنة فى مصر مدينة " نخن " الوارد ذكرها آنفا ويطلق عليها (هيراكونبوليس) مدينة الملك نارمر موحد القطرين وهى الان الكوم الاحمر شمالى ادفو بقرية البصيلية ، وقد عنى ملوك مصر منذ مطلع عهد الاسرات على الاقل بتحصين المدن

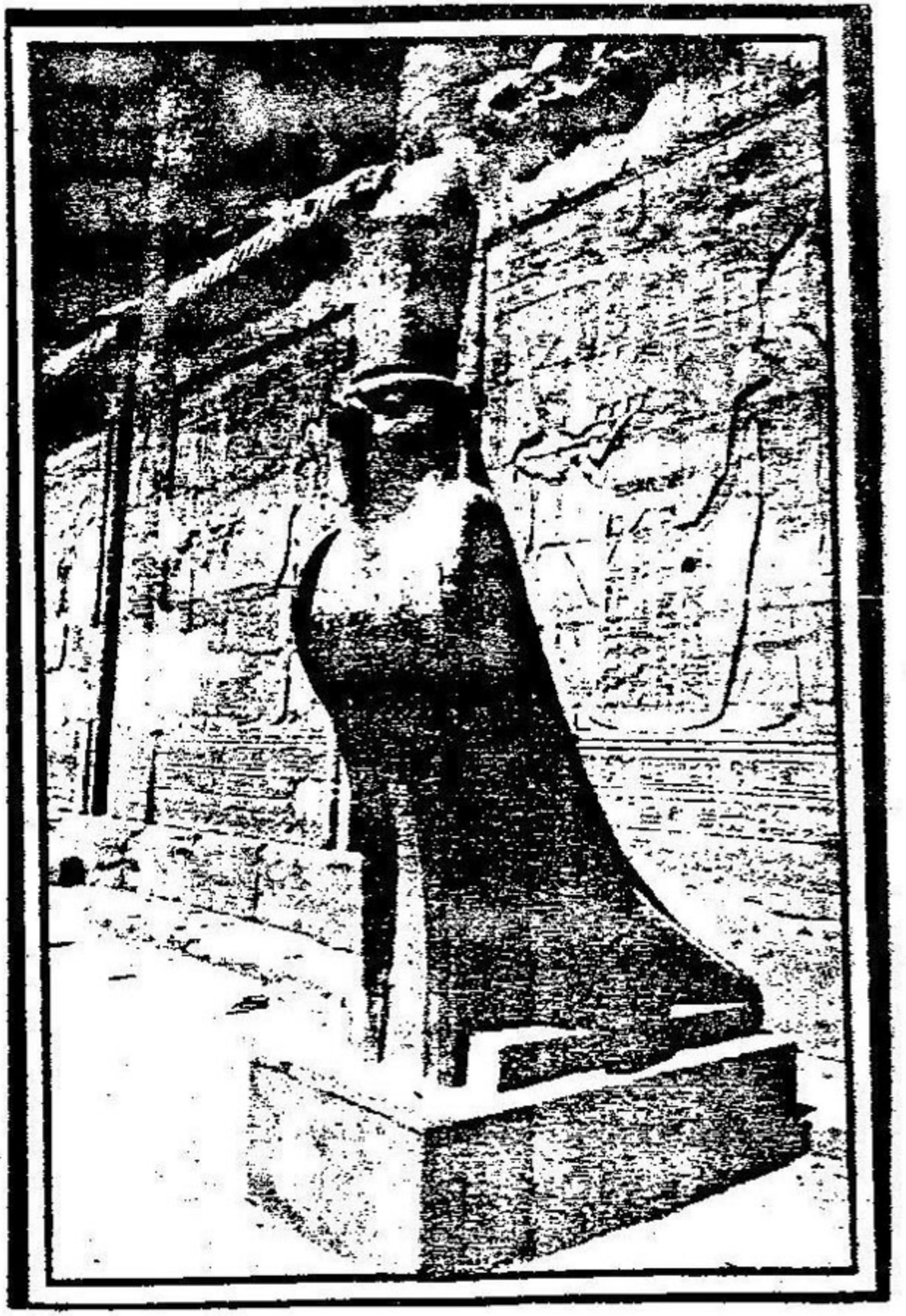

★ الآله حورس سيد ادفو

والحدود الشرقية والغربية والجنوبية ، ولا يخلو من مفـــزى ان منهم من نعـت نفسه بأنه " سور مصر العظيم " ويظـــن ان حصن"هيراكونبوليس " (الكوم الاحمر) من عهد الاســـرة الثانية ، وانه شيـد على حافة الصحراء ، وهو يتـالف مـــن سوريـــن احدهمـــا من داخل الاخر ، والسور الخارجى اقـــــل ارتفاعا من السور الداخلى ، واقل من نصفه سمكه ، ويتميـز السور الداخلى بانه تتخلل سطحه الخارجى دعامات ويكشـــف مدخله برجان متقاربان بما يمكن من حسن الدفاع عنه .

وفى الكوم الاحمر " نخن " كشف عن اطلال بعد البيـوت من اوائل الدولة القديمة وكان كل منها يتالف من قاعتيـــن متعاقبتين او فناء تليه قاعة ويبدو انه يشبه فى تخطيطـــه علامة هيروغليفية تمثل فيما يظن فناء وقاعة .

يتضح لنا مما سردناه سابقا ان للعمارة المصرية وظيفـة مزدوجة فثمة جانب عملى ، وجانب دينى ، فلقد كان ينظر الـــى المعابد على انها اماكن للعبادة ، وكان هذا يشارك فى تخليد الالهـة ، وهذا هو الفارق الجوهرى بين العمارة الحديثـــة وعمارة القدماء المصريين .

لم ينظر الادفويون الى المعابد على انها قصور الالهـــة التى تنصب فيها تماثيل لهم على صورهم ، حيث تقدم اليهـــم

القرابين ، ولم ينظروا اليها على انها قلاع بهذه الالهة يجب ان تشيد من احجار جامده تقاوم الزمن وتخلد خلود الالهة ، وان تنفسخ لاقامة الشعائر الدينية التى يؤديها المؤمنون لمعبودهم .. لم ينظروا اليها لهذا او ذاك وحده بل نظروا كذلك اليها نظرة رمزية لانهم جعلوا هذا المبنى الشامخ تجسيد للكون بأسره ، فجعلوا سقفه تجسيد لسقف السماوى الذى برز منه اله الشمس ليغمر بضوئه العالم ، وجعلوا ارضه تجسيدا للارض التى برزت من محيط العدم اللانهائى الذى ارتكز فوقه الاله الخالق لكى يتابع تشكيل هذا الكون وهكذا كان المعبد فى نظر المصريين القدماء بيتا للاله ، ومكانا مقدسا لاداء الطقوس الدينية ونموذجا مصغرا للكون سماءه وارضه ، ومسرحا يلتقى على منصته الاله بالملك الذى يمثل شعب مصر .

ولقد شاركت حضارات اخرى الحضارة المصرية فى هذه النظرة الى المعبد ، ولكنها فى مصر كانت ذات اعماق ابعد ، كان لها اثارها فى العمارة المصرية . وكان المعبد المصرى يتكون من جزء رئيسى ، ومقاصير ثانوية للالهة والالهات الاخرى ، ومن مذبح او مذابح تقام احيانا فى طريق المواكب الدينية وقد الحق بالمعابد فيما بعد مبان لاقامة الكهنة ، ومبان اخرى للاشغال رتبت حسب اهميتها الطقسية والدينية والجمالية ، غير اننا نجهل الكثير لعدم بقاء شىء منها فى حالة طيبة .

لقد نشأت التقاليد المعمارية فى مصر مرتبطة بالتقاليد الدينية حتى كانت لها هى الاخرى قداسة دينية تعرف عدم المساس بها ومن هنا كانت الحرية المتروكة للفنان المعمارى محدودة فلم يكن يستطيع تطوير التصميمات المعمارية الا فى نطاق التقاليد الصارمة ، بل ان دوره لم يكن يخرج عن الاستجابة لمتطلبات الطقوس التى لا تختلف من حيث المبدأ من معبد الى آخر الا قليلا وهذا لم يكن فى حقيقة الامر اكثر من مهندس فنى تنفيذى ومع ذلك فقد كانت مكانته الاجتماعية ملحوظة كما كان دوره التنفيذى هاما وخطيرا ومتشعبا اذا كان عمله يشمل المعبد على ضوء الوظيفة التى يؤديها المعبد ووفق النظام الكهنوتى والطقوس المتبعة ومساحات الاراضى الزراعية الموقوفة على المعبد وعدد العمال والمواشى والامتعة الثمينة المخصصة له . كان ذلك يتم كله بعد اختيار الكهنة للاله الجدير بالمنطقة والاساطير والطقوس والقربان التى تشكل ملامح الحياة الدينية داخل المعبد وهى الامور التى تحدد للمهندس المعانى التى يطلب اليه الكهنة ان يشيد المعبد لكى يوحى بها .

فقد ثبت من كثير من اوراق البردى المكتشفة التى رسمت عليها مساقط بعض المبانى ورسوم اخرى مبسطة وغير دقيقة تحمل المقاييس والاطوال المطلوبة والرسوم التفصيلية على ورق مقسم الى مربعات والتى يراد زخرفتها ايضا الى مربعات تسهيلا للعمل

★ مبنى جامع الصحابة الذي هدم

كما وجدت بعض الرسوم والعجالات التخطيطية على قطع من الحجر ومن الخشب ايضا . وكان بناء المعابد يبدأ بارساء الاساسات التي تسبقها عملية حفر تختلف عمقا باختلاف نوع الارض ومقدار ثقل هذه الاساسات ، فاذا كانت الارض طينية وصل عمق الحفرة الى ثلاثة امتار كما حدث في بعض المعابد ، ثم تقام في جوانب الحفرة حواجز مبنية من اللبن ، يفرش قاعها بطبقة من الرمل تبنى عليها احجار الاساس ثم يردم الفراغ حولها كذلك بالرمل اما اذا كانت الارض رملية او جيرية فانه يكتفى بحفر حوالى نصف متر تحت مستوى سطح الارض ثم ترص اولى طبقات الحجارة مباشرة على قاع الحفر .

وكان الادفويون يشكلون الاساسات احيانا من احجار مختلفة الحجم او من بقايا مبان اخرى ومنذ عهد الاسرة الخامسة والعشرين وخاصة في عهد البطالمة ازدادت العناية بالنسبة للاساسات حيث اقيمت المعابد الكبرى على اساسات من عدة طبقات من الحجارة المتماثلة مثلا جيدا ، وقد اتبعت في سقوف المعابد طريقة مد الالواح الحجرية الطويلة على جوانبها في السدول القديمة وتقويس كل لوح حجرى على حده من اسفل لتبدو الالواح كانها دعائم خشبية .

* منصورة الالهة "نوت" الهة السماء بمعبد ادفو .

ويبدو ان ادراكهم للقواعد الميكانيكا الخاصة بقوة المواد كان ادراكا محدودا وضاعف المعماريون العتبات ، فبدلا من استخدام عتبة واحدة كانوا يضعون عتبتين الواحدة الى جانب الاخرى وكانوا احيانا يضعون عتبة فوق اخرى رغبة فى تقوية البناء .

وقد ظهرت قباء عالية تبع حوالى اربعة امتار فى الابنية الدينية والمدنية المشيدة من اللبن المجفف وذلك باقامة جدار فى نهاية الغرفة او نهاية الدهليز اكثر ارتفاعا من جدارى الغرفة المتقابلين ثم يبدأ فى وضع صفوف من اللبن رأسية مرتكزه على نهاية كل من الجدارين المتقابلين على ان يميل اللبن فى اتجاهين فهو يميل اولا على الجدار المرتفع القائم فى نهاية الغرفة كما انه يوضع مائلا فى اتجاه الجدار المقابل ، وهكذا حتى يتلاقى جدارا القبو المائلان عند القمة وقد اتبعت هذه الطريقة عن وضع ركائز خشبية مؤقتة او ردم المبنى مؤقتا بالاتربة لامكان اقامة القبو فوقها .

ومن البديهى ان معابد ادفو لم توضع تفصيلاتها عندما بدأ ابناؤها فقط ولكنها تعتبر امتداد لتقاليد فنية سابقة تناولتها يد التطور خلال عهدى بطليموس الاول والثانى ثم تتابعت التطورات وان كانت هينة طفيفة حتى اننا مثلا لا نرى الا اختلافا ضئيلا بين قاعة معبد امنا الكبرى التى انشئت فى القرن الثانى

قبل الميلاد ،لقد عاشت العمارة فى ظل ولاء للتقاليد جنبها التدهور خلال فترة الجمود التى اعقبت الابتكار والتجديد اللذين قدمتهما الاسرة الثلاثون وبداية فترة النفوذ الاغريقى .

وقد برزت الاعمدة المركبة بوصفها اهم عناصر العمارة فى العصور اللاحقة وتكفى وحدها فى نسبة اى مبنى الى هذه العصور ذلك ان اعمدة هذه العصور جميعا نحتت على هيئة اعمدة البردى الاسطوانية ذات التيجان المتفتحة المتنوعة التى تصور انواعا عديدة من النباتات المتعانقة وقد علا بعضها بعضا فى نتش شديد البروز محور عن الطبيعة تحويرا بسيطا جدا كما رأينا وقد نقل هذا التنوع فى نحت التيجان مركز الاهمية من ساق العمود ذى الشكل الهندسى البسيط الى قمته ذات الزخارف الطبيعية المغلطحة والتى اصبحت تشد اليها الانظار واضحت السيقان اسطوانية تضيق قليلا قرب القمة واختفت فى العصور اللاحقة الاعمدة ذات السيقان المحدبة التى شاعت فى عهد الرعامسة . والاعمدة المتعددة الاضلاع التى كثرت فى عهد الاسرة الثامنة عشرة وكذلك الاعمدة الاوزيرية المربعة .

لقد كانت الفنون التشكيلية جملة وفن العمارة خاصة بالمجال الذى انفسح لوجدان الفنان كى يجول فيه باحاسيسه

ويعبر فيه عن مشاعره ، فاذا كل ما خلفه فى هذا الميدان قطعة من نفسه ، وسر من سره ، تحس فى لمسات يده همسات نفسه ، وفيما تحمل المبانى من تشكيلات ،ما يحمل هو من مدات تنبض بكل ما نبض به قلب الانسان من انفعالات .

حقا لقد كانت العمارة هى قطب الرحى الذى قامت عليه جميع الفنون الاخرى التى اخذت منذ ظهورها تمضى متصاندة فى سبيلها الى تحقيق فن معمارى خالد . هكذا شارك كل من التصوير ، والنقش ، والنحت ، والكتابة فى تشكيل المعمار المصرى الذى يفيض به معبد " حورس " بادفو جلالا وجمالا وتزهى به الكاب فخامة وعراقه . ففى الاثار المعمارية المصرية تتجلى مصرية الفن أجمل ما تكون . بل انها لا تكاد تأخذ كمالها هذا الرائع فى غير الفن المعمارى يمثل ذلك النقش البارز الذى يدلنا على تلك الملكة التصويرية التى اتصف بها الفنان المصرى ، وهذا الظل والنور اللذان يمتزجان فى اتساق جميل على صفحات الحجر ثم تلك النتوءات والتجاويف والحنايا التى تعلو وتهبط بحساب دقيق فتبدو وكأنها الموج لوة وانسيابا .

ونظرة الفنان المصرى فى المعمار هى نظرته فى غيره من فنون اخرى ، والحاسة التى تملى هناك ، فهو حين صور الاشخاص

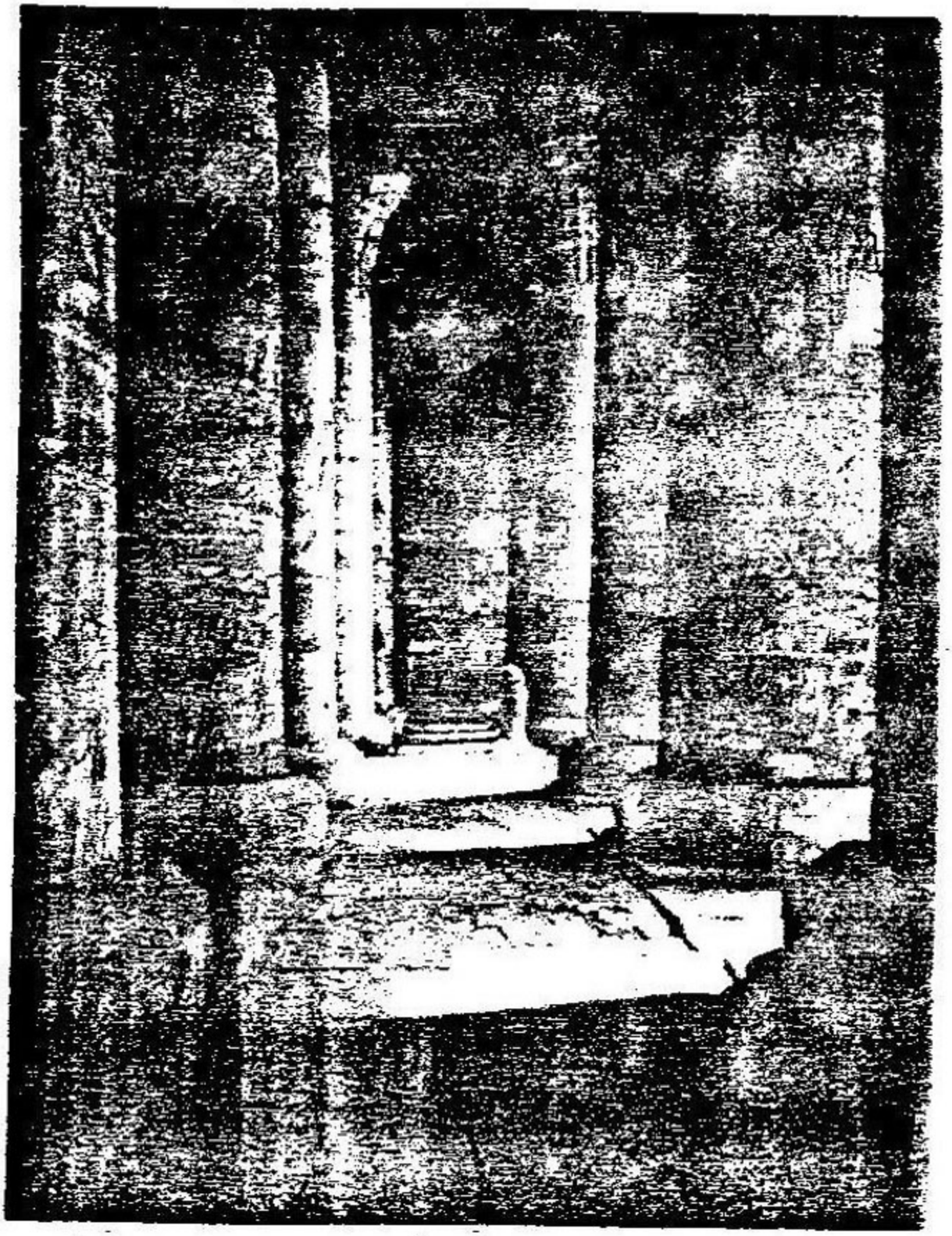

* الاعمدة المركبة اهم عناصر العمارة

كان كمن يضع تخطيطا هندسيا لبناء دقيق هنا كما كان دقيقا هناك ، المهم ان الحياة كل متكامل لا انفصام لجزء من جزء فاذا هو يستلهم الكون بما يضم يحس بما فيه كله ويجمع حسه من هذا كله ، ثم يوائم بين هذه الاشعاعات التى تنفذ الى نفسه ليصوغ منها فنا مبدعا يحاكى الحياة يجمع صورها كما رآها وكما احسها ، وصدرت عنه اعماله الفنية يمهد لبعضها البعض لتبلغ اخر المطاف غايتها من رقى وكمال فكان ظهور الاوانى الفخارية تمهيدا لظهورها حجرية ، ثم كان هذا وذاك ، تمهيدا لظهور فن النحت ، ولقد عرف عن المصريين فى اعمالهم الفنية حفاظهم على تقاليد وسمات تجعلنا نظن ان الحضارة المصرية مضت بخطى وئيده غير متحلله من تقاليدها والواقع يدل على غير ذلك ، فلقد كان ثمة تطور بل لقد كانت ثمة وثبات بعيده حفزت اليها اسباب اصيلة راسخة مثل الديانة وحياة المعابد بشعائرها وطقوسها والعلوم الرياضية وكذلك الموقع الجغرافى والنظام السياسى والادارى والاجتماعى فلقد كان لهذه كلها اثر فى العمارة المصرية اسهم معها اسهاما لاحقا . ونحن اذا ما نظرنا الى فن المعمار المصرى برزت من بينه الابنية الدينية تحكى لنا كيف حرص المصريون على انشائها من مواد جامده تطاول الزمن وتستعصى على الفناء . وكيف كان لها ما لمعابدنا الحديثة من توفير الاطمئنان للمعبد ثم تهيئة جو من القدسية يبعث الخشوع فى النفوس ، ويذكى

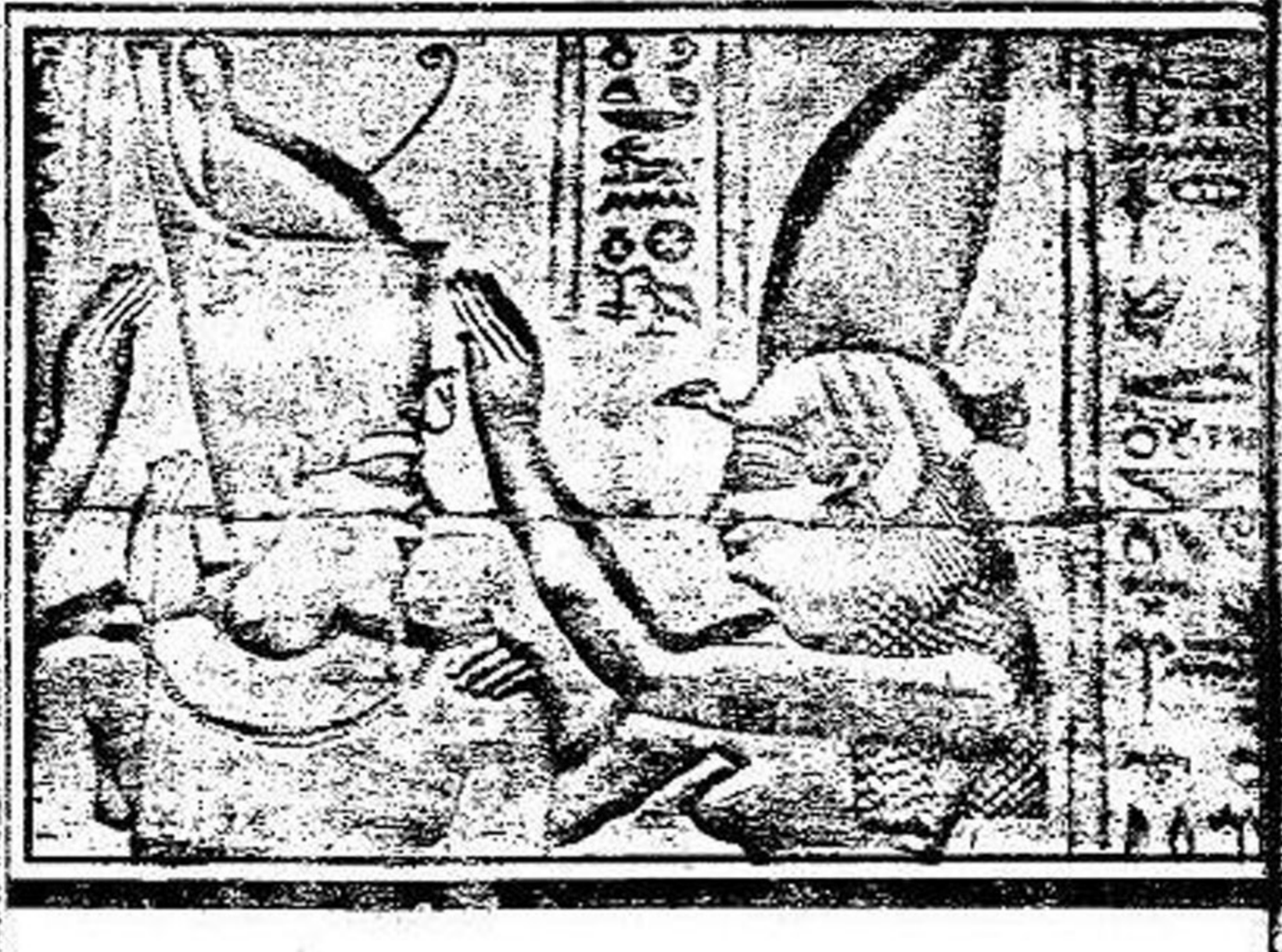

★ لوحة التتويج بمعبد ادفو .

الرهبة فى القلوب ، وهكذا لم تكن الابنية الدينية انشاءات هندسية فحسب بل كانت تعبيرا عن مظاهر مادية واخرى روحية ولقد اتاحت هاتان الصحراوان اللتان تكتنفان وادى النيل شرقا وغربا لمصر ان تمضى فى تطورها دون خشية من اى غزو خارجى ، كما كانتا بما فرضتاه من عزلة السبب فى هذا الذى ذكرناه من قبل فى حفاظ الحضارة الفنية وغيرها على تقاليدها لا تغريها تقاليد اخرى بالاخذ بها ، وفى ظل هذا الامن الذى فرضته الصحراوان كان هذا الاستقرار الذى هيأ لمشروعات الرى الكبيرة ان تنمو ، تلك المشروعات التى مهدت لخلق دولة مركزية حكومية بيروقراطية منذ زمن مبكر .

وغير بعيد ان يكون الفلاحون هم الذين كانوا يكلفون بالمشاركة فى نقل الحجارة فى موسم الفيضان حين يرتفع النيل فيسهل نقل الاحجار ، واغلب الظن ان كل هيئة من هيئات الدولة الادارية كانت تطالب بايفاد عدد كبير من الايدى العاملة اللازمة للبناء على ان يقوم بمدهم بالطعام ، والمسكن ، والكساء والآلات ، والدوات وبملاحظتهم والاشراف عليهم بمندوبين من قبلها وتقديم عدد اخر من المهندسين والمقاولين . وقد كان العمل يجرى بتقسيم موقع البناء الى قسمين او اربعة يخصص لكل قسم مجموعة من العمال يقومون بالعمل بالتناوب ، وفق جدول محدد كما كانت توضع قوائم تدون على ورق البردى او الحجارة وتبين عدد العمال المشتغلين بكل قسم وكمية الحجارة المستعملة والاتربة المكومة .

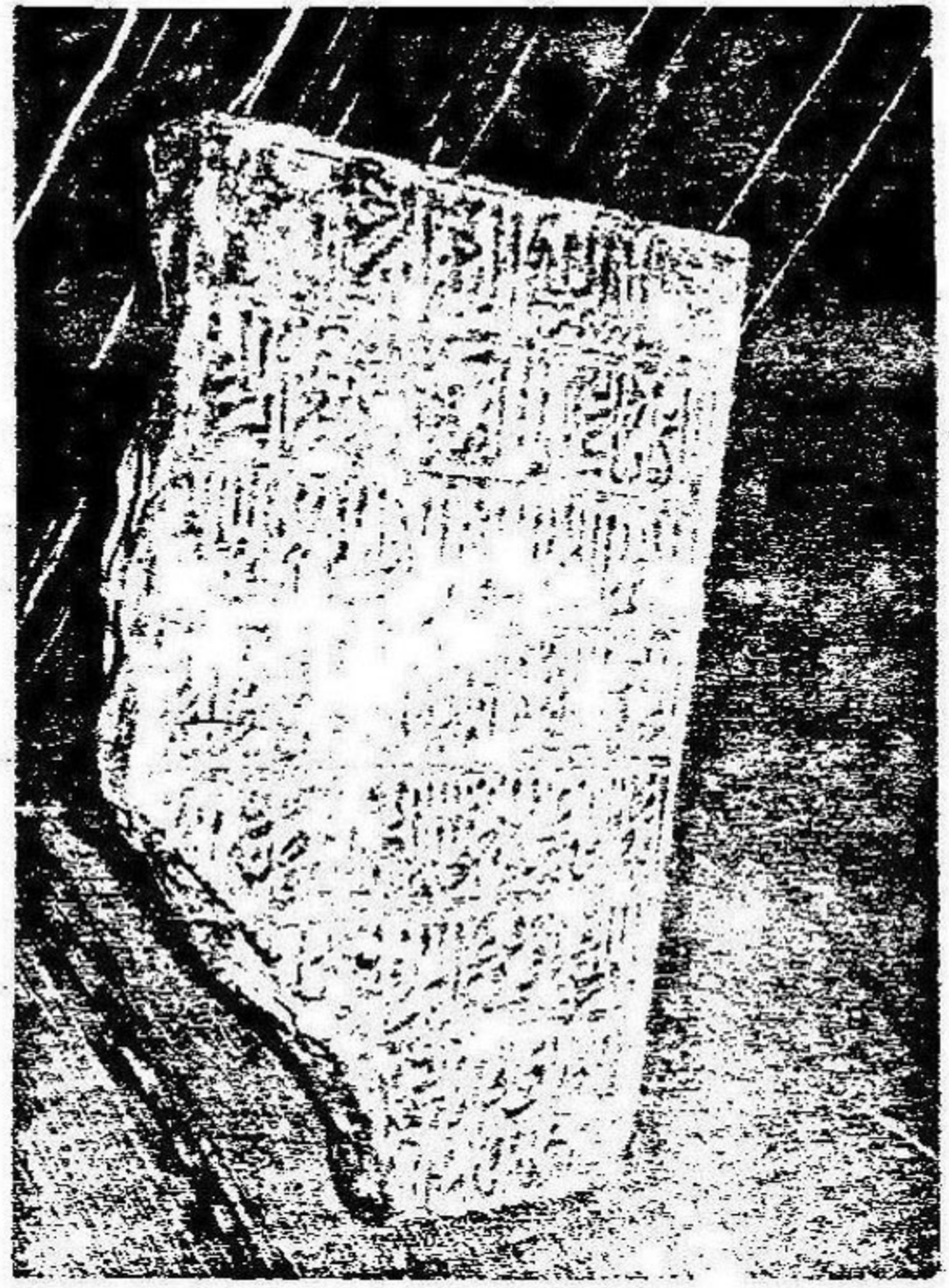

★ اللوحة التى عثر عليها بالمسجد العمرى بادفو

- تابع ص٦٤ -

ومهما يكن من شئ فان اهم عنصر معمارى نستطيع ان نتابع من خلال تغيراته تطور العمارة المصرية هو الاعمدة وقد كان من الطبيعى ان تكون الاعمدة هى العنصر الذى يعتريه التغيير من عصر الى عصر بل ومن معبد الى اخر نظرا الى اهميتها فى طراز معمارى يتميز بالسقوف المسطحة وبالجدران التى لا تتخللها نوافذ ، والطنوف ذات الطية الطيلسانية " . " الخيزرانة " واذا تذكرنا كيف كان على المهندسين المصريين ان يقيموا اعمدة ضخمة ، وان يقاربوا بين بعضها البعض ، لتستطيع ان تحمل هذه الاعتاب الثقيلة فوقها التى حالت بينهم وبين اختيار اعمدة اكثر نحافة او توزيعها على مسافات ابعد عرفنا السر فى عجزنا عن ادراك النسب العامة لقاعة تتزاحم فيها الاعمدة المستديرة والمربعة . بل انه ليصعب على العين ان تخرج من اسار الاعمدة المحيطة بها فتعجز عن تتبع اكثر من مهد واحد تحصرة الاعمدة او من ممرين متقاطعين عند زاوية قائمة ، ذلك ان الاعمدة هى التى تكون حدود المكان داخل المبنى وهو ما يجعلها تبرز على انها اهم عنصر من عناصر العمارة .

ولم تكن الاعمدة فى بدايتها غير تلك القوائم الخشبية التى تسهم مع الجدران فى حمل سقوف المبانى الاولى المقامة من اللبن والتى لم يكن من الممكن استغنائها عن هذه القوائم الا فى غرفها الضيقة ، وقد ارتبطت الاعمدة منذ ظهورها

بعنصرين رئيسيين هما .. قمة العمود ، وقاعدته ، وكانت القاعدة كتلة مستديرة من الحجر تثبت فى الارض ويتوسطها سطحها العلوى حفرة يركز فيها القائم الخشبى ، وكانت قمة العمود كتلة مربعة من الخشب يرتكز عليها اللوح الممتد بين الاعمدة وكانت الجدران يتوزع عليها ثقل عوارض السقف ولم يحفظ لنا الزمن من هذه الاعمدة الخشبية غير قواعدها الحجرية التى بقيت ثابته فى اماكنها الاصلية واذا كانت الاعمدة اصلا من جذوع الاشجار للقيام بهذه الوظيفة العملية فى حمل السقف فما اسرع ما اسبغ المصريون عليها فى الحجر من حسهم الفنى المرهف ما جعلها عنصرا تجميليا كذلك . ، فقد حوروها وجملوها بالزخارف الملونة ونحتوها مربعة او متعددة الاضلاع ومستديرة او مسلوبة او مفلطحة الطرف العلوى ، ومنذ حل الحجر محل اللبن فى البناء بمنتصف الدولة القديمة اخذت الاعمدة الحجرية تحل محل الاعمدة الخشبية ، وقد بقيت من تلك الاعمدة قوائم حجرية مربعة هائلة فى المعابد الجنائزية لملوك الاسرة الرابعة ، ثم ابتكرت الاسرة الخامسة العمود الذى سمى فى العصور اللاحقة بالعمود النباتى ، وهو الذى حاكى اشكال النباتات المختلفة ، فنحت اولا على هيئة النخيل ثم نحت على هيئة نباتى البشنين والبردى الواسع الانتشار فى جميع مناطق المستنقعات المصرية . وقد نحت العمود النباتى على هيئة

ساق منفرده او حزمة من السيقان كما نحت له تاج يمثل زهرة متفتحة او مغلقة على هيئة برعم هذا النبات وتعلو التاج قمة مستوية دقيقة " وسادة " ترتكز عليها عوارض السقف فيبدو القصر او المعبد كأنه واحة امتلات بسيقان نباتات استطالت حتى لامست السماء ، ثم اخذت الاعمده النباتية تفقد مع الزمن شكل النباتات التى صورت على هيئتها فى البداية وبقيت اشكالها تتطور مستقلة عنها فاختفت صورة النخيل واقتربت الاعمدة المنحوتة على شكل زهرة البردى من تلك المنحوته على هيئة زهرة البشنين حتى لم يعد التمييز بينهما ممكنا .

وبذلك نرى ان العمود هو العنصر المعمارى الذى حظى دون غيره بأكبر قدر من التطور وخصوصا اعمدة القصور والدور التى تحررت من تقاليد عمارة المعابد ، ومع ذلك فقد كان الملوك يتعجلون احيانا اقامة صلات بالله من الالهة ، فيأمرون ببناء معبد له وهنا تتدخل عوامل الاقتصاد والسرعة ، فتظهر بعض آثار لا يتألق فيها العقل ولا تبرز فيها براعة التشييد والزخرفة مثل المعابد التى تبنى فى توءدة .

صناعة اللبن بادفو : " الطوب النى "

جلب النيل الى مصر على مدى الآف السنين طبقة سميكة من الطمى صنع منها الادفويون منذ آواخر ما قبل الاسرات اللبن وذلك بخلطه برمل او تبن او مادة اخرى ليقوى تماسكه ، وحتى لا يتقلص ويتشقق ويفسد شكله عندما يجف وكان يعجن بالماء حتى يصير لزجا ، ومن ثم كانت تملأ به قوالب مغيرة مستطيلة من خشب ، تترك فى الشمس اياما حتى يجف ما بها . ولما كان الطمى متوافرا فى كافة انحاء مصر ولا تحتاج صناعته الى مهارة كبيرة فإن البناء به رخيص ، ويناسب طقس ادفو لقلة المطر فيها فضلا عما يتوفر فى البيوت التى تبنى منه دفء فى الشتاء واعتدال حرارة فى الصيف ، وقدرة على البقاء زمنا طويلا لا يتلفه الا ما تذروه الرياح من رمال يسهل علاج أثره بملاط من طين يجدد من وقت الى آخر .

ويصنع ايضا الطوب الاحمر والاوانى الفخارية بعد حرقها فى تمائن معده خصيصا لذلك .

النحت :

برع الادفويون فى فن النحت وكانت تماثيل الخاصة عادة تحمل فى الغالب اسم مليكهم تعبيرا منهم عن ولائهم

وتقديرا لشخصيتهم الفذه ، كذلك برعوا فى فن النقش ونهضوا به نهضة فائقة حقة ، فقد وهن فن النقش طوال قرن ونصف قرن بعد نهاية الاسرة السادسة والعشرين ولكنه ارتقى ابان حكم الاسرة الثلاثين ولا سيما فى عهد حكم الملك " تحت ـ نب ـ اق " ثم جاء العصران اليونانى والرومانى وعلى الرغم من انهما تركا اثارا دقيقة الا انهما كانا بداية انحدار نهائى متعل . ولعل السر فى كثرة تماثيل الحيوانات فى هذا العهد هو احساس المصريين بابتعادهم عن آلهتهم الاقدمين الذين عجزوا عن حمايتهم من الغزاة وكوارث الاحتلال ، فهرعوا من جديد الى هذه الاقانيم الالهية مثل رحمة الدبة " موت " وآبى منجل الاله تحوتى والعجل ابس الذى يجسد الالهين بتاح واوزيريس وبقرة سبك والقرد الخاص بالاله آمون ومقر حور وقطة الربه باسته وابن آوى الاله اوبيس " . الى غير ذلك من اقانيم حيوانية مقدسة .

التصوير :

ليس من الاسراف ان نقول : " ان الدراسة الجادة العميقة لنماذج فن التصوير المصرى الخالده قد تقودنا الى انه المنطلق الحق لفن التصوير الحديث ودعامة تطوره وتألقه وازدهاره " اندريه لوت .

ويقول " بتاح حوتب " فى تعاليمه " ليس للفن حدود ، وليس ثمة فنان بلغ ذروة الكمال " .

تحس كيف استخرج المصرى الادفوى من ظلمات المقابر المهيبة حيث الموت برهبته ، والصمت بوحشته ، والعالم الآخر بغموضه واسراره ـ من الرهبة أنسا ،ومن الوحشة ألفه ، ومن العبوس اشراقة بما ترك من صور ورسوم على جدران تلك الحجارة الصماء اوحى بها وجدان عامر بالجمال فبدت ساحرة فى اسلوبها ،زاهية فى الوانها ، تجعل الزائر مشدوها بها ، مجذوبا اليها ، عالق البصر بكل ركن وزاوية دهشا معجبا .

فها هى ذى جدران المقابر وكأنها لوحات متعانقة تتخيل اننا معها فى متحف قدس او اننا نعبر مجازا سحريا يصل بين عالم الارض وعالم السماء . لوحات تذكرنا بما فى الحياة الدنيا من كدح فى الحقول ..... ومغامرات فى الصحراء واخلاد فى الدور بين الموسيقى والرقص والغناء ولوحات تصور لنا الحياة الاخرى بمواكبها الجنائزية والمثول بين يدى الالهة وشهود الحساب .

وما هذا إلا لأن فنون ادفو الجميلة ولدت مع مولد مصر موصولة باساطيرها ومعتقداتها الدينية المليئة بالاسرار .

ونحن اذا ما نظرنا فيما تبقى لنا مما قدمه المصورون القدماء وجدناه يندرج تحت مجموعات ثلاث :

مجموعة اولى تصور اساطير مصر القديمة عن العالم الاخر وآلهتهم واقدارهم .

مجموعة ثانية تصور الطقوس الجنائزية التى كانت تقام للميت قبل دفنه .

ومجموعة ثالثة تصور مشاهد من الحياة .

الفنون الدقيقة :

يكاد يكون الفن الدقيق أول شىء اشتغل به المصرى ومنه الادفوى وأول ميدان من ميادين الفنون اجاد فيه وكان له فى ذلك آثار عرفنا منها كيف كان عشقه لما هو جميل ، وشغفه بما كان فيه اعمال للفكر وحرصه على كل ما فيه ابداع واتقان ، هذا الى ما اوتيه من صبر واناة .

وكان بدء المصرى فى هذا الفن يوم بدأ يتخذ لنفسه أدوات من الحجر يستخدمها فى حياته اليومية ، ويوم بدأ ذوقه المرهف يملى عليه ان يصوغها اشكالا فيها فن وفيها ابتكار ، فاذا اوعيته وسكاكينه ، وما اليها وكانها تحف تركيبا وتنسيقا واذا نقوشها التى تحملها

تضفى عليها روعة وجمالا وسحرا آخاذا . وكما صنع هذه من الحجر خطا فصنع غيرها من العاج والعظم ، فاذا بين يديه ثروة من ادوات الزينة ومثلها من ادوات المائدة ، واذا هو بعد هذا ينقب فى الارض ويغوص فى البحر بحثا عن المعادن والاصداف ليتخذ منها حليا ، وليفيد منها فى مآرب اخرى واذا له من خشب الاشجار ومعادن الارض وقواقع البحر واصدافه بدع دقيقة من الصنع الانيق تشهد له بالسبق فى الخلق وبانه الاستاذ الأول لهذا الفن بحق .

الموسيقى :

" هذا الفن الساحر ، فن الموسيقى ، كان الى مصر ابتكاره ، على ارضها نشأ ، وبين رجالها تطور ، فصاغوا من الكلام انغاما واودعوا الانغام الهامهم ، وضمنوها حكم كهانهم " . من الاساطير الافريقية القديمة .

نحن نعلم ان الموسيقى ليست كغيرها من الفنون الاخرى يغيب اثرها بغياب مكاناتها وتنقطع صلة الناس بها باختفاء مقوماتها بل هى فن يشارك فيه الشعب كله يردد صداه فى صباحه ومسائه ، وهو ان غابت مكوناته واختفت مقوماته وجدت صوره من هذا وذاك على ألسنة الناس تتردد على مر الايام .

ولقد وجدت للمصريين القدماء آثار منقوشة او مصوره تمثل الآلات الموسيقية التى كانت مستخدمة حينذاك مثل " الناى " و " الليرا " و " الهارب " و " المطلمات" ووجدوا فى تنوع هذه الآلات الموسيقية واختلافها ثم فى وفرتها وفرة لم تتحقق لحضارات أخرى قديمة مثل حضارة آشور وبابل وجدوا فى هذا كله ما يجعلهم يؤمنون بأن الموسيقى المصرية القديمة فى معناها وادائها ان نستمع للشعب وهو يردد اغانيه ، وأن نستفيد من تلك الذاكره التى وعت فن الاجداد فكانت كالسجل المكتوب .

والدارس لهذا يجد طريقه الى تعرف تلك الموسيقى فى صورتين ماثلتين لتلك الموسيقى المصرية احداهما تتمثل فى حياة الناس العامة لا سيما فلاحى مصر ومصر العليا ادفو بصفة خاصة ، فمن عاشوا حتى اليوم ابعد شيئا عن المؤثرات الوافدة ، وبقيت لهم اغانيهم بترنيماتها على صورة ما نشك فى انها لم تبعد كثيرا عما كانت عليه فى الماضى البعيد وما نظن بأنها غير استبدال الفاظ اما من الاداء فما نظنه الا صورة مما كان او اقرب الى ما كان ، فالحوافز التى املت على الادفوى المصرى منذ ملك ان يعبر عن خلجات نفسه ويفصح عن مشاعره غناء ، وانشادا ، مازالت هى الحوافز التى تملى على مصرى اليوم مع تفاوت قليل استلزمته عوامل جديه ودخلت على البيئة

ولكن هذه العوامل الداخلة كما لم تغير من كنة البيئة وطبيعتها ، فهى كذلك لم تغير من كنة الغناء وتكوينه الأول ، فالعادات هى العادات ،والتقاليد هى التقاليد لم يختلف هذا كله ان صح ان هناك اختلافا إلا فى المسحة والطلاء . ونجد فى ادفو الاغانى الموسمية وبعض الاغانى الشعبية ، ترتبط بالعادات الاجتماعية ، وقد تشتمل هذه الأغانى على أصول فرعونية مثل اغانى " يا نخلتين فى العلالى يا بلحهم دوا " وهدهدة الأم لطفلها " نام .. نام .. وادبح لك جوزين حمام .. وافرقهم لك على الجيران " .

فكثير من عادات الشعب المصرى خصوصا بين اهل القرى كانت شائعة جدا لدى المصريين القدماء . لقد نشأ هذا الفن الكبير فن الموسيقى على أرض مصر عموما وادفو خاصة ، ومن أرض ادفو شاع ليعم العالم اجمع وليعايش الانسان فى كل مكان ومع كل زمان لا انفصام بينهما ، وكأنه واياه صنوان لا يفترقان . وحين الهم المصريون القدماء ان يتجهوا الى اله ، وان تكون لهم فكرة عن حياة اخرى بعد حياتهم الاولى ، وان يرعوا امواتهم ليكفلوا لهم النعيم فى مرقدهم الأخير .. اجل حين الهم المصريون هذا كله الهموا تلك اللغة العذبة

المنغمة يناجون بها آلهتهم ويتحدثون بها الى موتاهم ويجعلون منها عودتهم حين يلم بهم خطب فى ابدانهم او فى حيوانهم او فى ارزاقهم وما يزرعون ، ثم مالبث هذا الفن ان ملأ حياة الادفويين ، فغاص فى مرحهم وصاحبهم فى رقصهم ولازمهم فى غنائهم ، واستحالت به اعيادهم الى مهرجانات صاخبة بالبهجة ، وعليه غدت الموسيقى متعة وسلوى للناس على مختلف طبقاتهم يستمتع بها الخاصة على صورة ، ويستمتع بها الشعب على صورة اخرى ، وكانوا اذا ما ودعوا ميتا الى مقره الأخير لم ينسوا ان يضعوا فى تابوته شيئا من الآلات الموسيقية حتى لا يحرم من آخراه ما استمتع به فى دنياه .

ولقد كانت الموسيقى للادفويين تشبع ناحيتين :- " دينية - واستمتاعية " ، لذا عاش الادفويون يفرقون بين ما كان للدين وبين ما كان للاستمتاع وعلى حين كانت للموسيقى الدينية قيود وتقاليد تتفق والشعائر الدينية وقدسيتها وصارت للموسيقى الاستمتاعية طلاقة تتشكل بالمؤثرات الخارجية ولا سيما بعد ان كانت لادفو مكانة مرموقة بين بلاد الصعيد وتوثقت صلاتها الثقافية بالحواضر المجاورة . وكانت الموسيقى أكثر الفنون تأثرا بهذا الاتصال وخاصة فى العصر اليونانى والرومانى .. ومن

★ توزيع الطيب فى ساحة المريدين بالطرق الصوفية

ـ تابع ص ٥ ـ

الآلات الموسيقية المستعملة " الطبل - الزمارات - البوق الفرعونى - الترومبيت - شنب بالمصرية - الاوبوا بالمصرية ماة - الناى - الارغول الكلارينيت - المزمار المزدوج الريشة - الآلات الوترية الهارب - العود - الدف - المطلطة " .

وهكذا انساب اسم " بحدت " - ادفو - عبر التاريخ يشنف آذان السامعين مترنما بالحضارة ، والتاريخ ، وتوالت السنون ، وتعاقبت الايام الى ان غيّر البطالمة ذلك الأسم الى " ابوللونوبوليس " ، اى مدينة الاله " ابوللون " الاغريقى - وذلك الاله عرفه الرومان بأسم فينوس رب النور اما عند اليونان فكان ايضا رب الشباب والشعر والموسيقى فهو الذى أوجد القيثارة كما عرف ابوللون بانه رب النبوءات والطهارة ورد الاذى . والاوبئة عن الناس - وفى هذه الفترة من التاريخ كانت هناك سياسة دينية للبطالمة للتوفيق والربط ما بين مشاعر المصريين وقلوب الاغريق فى مصر فكانوا يبنون المعابد وما يقص على جدرانها يكتب بالهيروغليفية الفرعونية القديمة وذلك لتطبيع العلاقات بين الشعب المصرى والاغريقى وكسب ود الشعب فى مصر .

وبذلك سارت قافلة الزمان تمضى عبر الاجيال حتى ضعف البطالمة وكانت روما تنتهز الفرص وتنتحل المعاذير من أجل التدخل فى شئون مصر الداخلية وعندما احتدم النزاع بين كليوباترا والرومان ، ادى ذلك الى زوال حكم البطالمة ولقد اعتبر السناتو أول اغسطس عام ٣٠ ق . م وهو استيلاء الرومان على الاسكندرية .. مبدا فى روما وبدء التقويم فى مصر .

والرومان بطبعهم عسكريون ومن المحتمل انهم قاموا بحرق معبد بطليموس بادفو ذو البناء البطلمى والنقوش الفرعونية وما زالت اثار الحرائق التى اشعلت على جدران المعبد واسقفه المختلفة موجوده حتى الان .

وبعد نحو ثلاثين عاما من سيطرة الرومان على مصر ولد " عيسى بن مريم " . عليه السلام فى بيت لحم بفلسطين وانتشرت اخباره ومعجزاته وذاع صيته فى الاقليم ، ودخلت المسيحية مصر وتغير اسم " ابوللونوبوليس " الى " ادبو " وهو اسم قبطى يعنى مدينة الشمس الساطعة ، ونستخلص من ذلك تعدد اسماء ادفو من " بحدت مرورا بأبوللونوبوليس فادبو ثم ادفو "

وهكذا فى الوقت الذى اخذ فيه الرومان ينزلون اشد انواع الاضطهاد بمن لا يؤمن بالمذهب الرسمى للدولة وهو الوثنية ،

كانت قوة عربية جديدة تتشكل فى قلب الجزيرة العربية ذلك ان رسول الله محمد بن عبد الله الهاشمى عليه الصلاة والسلام ، كان قد بلغ سن الاربعين عام "٦١١م " ونزل عليه الوحى فى مكة مبشرا بدين جديد هو الدين الاسلامى .... وكان الفتح الاسلامى لمصر بقيادة القائد العربى " عمرو بن العاص " عام "٦٤٢م " ومنذ ذلك الوقت بدأت مصر صفحة جديدة من تاريخها فكما انها كافحت فى سبيل انقاذ المسيحية وفدتها بالدماء من بطش الرومان ، فانها حملت راية الاسلام وساهمت بأكبر قسط فى بناء الحضارة العربية ، حتى صارت الآن قلبا للعالم الاسلامى ومركز اشعاع للحضارة العربية .

يتضح من العرض آنفا ان الغزاه من الافريق والرومان لم يفلحوا ابدا فى التقرب من الادفويين فى عهد مصر اوفى فرض حضارتهم على الحياة الادفوية ، فإن الروح القومية الجبارة الكامنة فى نفوس الادفويين تلك القوة الروحية التى صمدت دائما لضغط الغزاة فاخضعتهم او طردتهم ، وجعلت الادفويين خصوصا والمصريين عموما المغلوبين فى اخر الامر فالبين منتصرين .

ونعود مرة أخرى الى " ادبو " الأسم القبطى الذى تغير فى عصر الفتح الاسلامى الى " ادفو" بنفس المعنى السابق مشتقا من الدفء والدفء والشمس الساطعة صنوان كلاهما يرمز الى الآخر .

عاش فى ادفو الكثير من العلماء الذين اثروا الحياة العلمية فى مصر ، نبتوا من ارضها وجرت دماءهم من نيلها منهم المتصوفة الفقهاء ، والفلاسفة والشعراء وفى شتى العلوم والمجالات بالعصور الوسطى الاسلامية او العصر الحديث

فالبيئة الادفوية تزخر بعبق التاريخ وروائح الحضارة القديمة ممتزجة بالاسلام فيكون الفقة والعلوم النقلية تعقبها العلوم العقلية .

إدفو والعصور الوسطى

فى بيئة خصبة ثقافيا وروحيا ودينيا ، ألا وهى البيئة الادفوية ، عاش المؤرخ والامام الصوفى " ابو جعفر الادفوى ". ولكى نتحدث عن ذلك العالم النجيب وغيره من العلماء الذين اثروا الحياة الثقافية بادفو ومصر ، لابد لنا من وقفة تمحيص وفحص لهذه البيئة الصوفية التى تأثر بها علماؤنا ، فالتصوف الاسلامى ظهرت بذوره فى مصر مع مطلع القرن الثالث الهجرى على يد" أبى الفيض بن ابراهيم بن ثوبان " المعروف بذى النون المصرى المتوفى عام ٢٤٥ هـ - ٨٥٩ م ، ويقولون انه من اصل نوبى ، وهو أول من تحدث فى الاحوال والمقامات ، وفاض

قلبه بالحب فى الذات الالهية ، وظف اثرا واضحا فى علوم الحقيقة بما تركه من اقوال . والتصوف هو علم ومعرفة وعمل وعبادة ، وكل علم يعرف به الانسان ربه ، فهو من سبيل التصوف وما من علم لو تدبر الانسان ظاهرة وباطنه الا ويشير الى المعرفة الكبرى والحقيقة الأولى وهى وجود الله ووحدانيته ، وكل عمل يبذل الانسان فيه كل جهده وعرقه ليحقق به خلافته لله فى ارضه ، فهو من طريق التصوف ، وكل عبادة خالصة يقبل فيها الانسان بقلبه ووجدانه ، ويخلى ما بداخله عما سوى الله فهى من التصوف .

هذا الاتجاه الذى كان عليه التصوف الاسلامى فى ادفو ، ترك اثرا واضحا وعميقا فى السلوك الحسى ، وفى التربية الاخلاقية ، فظهر فى البيئة الادفوية الشيخ ، والمريد ، والمرشد الذى تعهد السالك والمريد بألوان من الرياضات والمجاهدات فى السلوك الحسى والتربية الاخلاقية ، ولكل من هؤلاء كان منهجه وطريقه الخاص فى هذا الجانب من الحياة الروحية .

من هذا المنطلق نجد ان الصوفية دعت الى العلم ما استطاعت ، العلم الذى يصل به الانسان الى الحقيقة " ان فى خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار لايات لاولى الالباب"

٣/١٩٠ " انما يخشى الله من عباده العلماء " وهكذا فان العلم هو سبيل المعرفة ، ولذلك فإن أهم ما يجب على الانسان ، كل انسان ، واى انسان يريد ان يعرف الحق ويلتزم به ، ان يتعلم .. ما وسعه العلم ، وان يرى دائما فى العلم السبيل الى المعرفة .. معرفة الله " قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر اولوا الالباب "٣٩/٩.. اتجه علماء ادفو فى ذلك الوقت ينهلون من معارف العلم النقلى المؤدى الى طريق الله ، فالقوا الدنيا وراء ظهورهم ، وبحثوا فى القرآن الكريم وسافروا لطلب المعرفة فانتقلوا الى " قوص " وكانت فى ذلك الوقت حاضرة من حواضر الصعيد ، وهنا نتوقف عند اقليم الاعمال القوصية الذى كانت " قوص " عاصمة له منذ عهد الدولة الفاطمية حتى آواخر حكم المماليك ، وهو متسع الارجاء ، يضم عددا كبيرا من البلدان منها اقليمنا ادفو .

وقد بلغت " قوص " فى هذه الفترة شأوا بعيدا فى شتى نواحى الحياة ، فكانت تقف على قدم المساواة مع القاهرة ، ودمشق ، وحلب ،والاسكندرية ، وكان يحكمها امير من قبل السلطان فى مصر ، ومن اشهر هؤلاء الامراء الذين حكموا هذا الاقليم الامير " مجد الدين بن اللمطى " الذى ولى شئون حكمه فى الفترة من ٦٠٧ هـ - ١١٨٥ - ١٢٥٨ م ، وقد كان كريما محبا للخير ، مقربا اليه رجال الدين والتقوى والصلاح والعلم

وكان ذواقه للادب ، مشهدا للشعراء والادباء ، الذين عاشوا فى هذا الاقليم ، فقد عمل فى بلاطه الشاعران المعروفان " البهاء زهير ٥٨١ - ٦٥٦ هـ - ١١٨٥ - ١٢٥٧ م وجمال الدين ابو الحسن بن مطروح ٥٩٢ - ٦٤٩ هـ - ١١٩٥ - ١٢٥١ م " كانت قوص سوقا التصاديا رائجا ، ومسلكا للحج آمنا عن طريق عيذاب ومركز اشعاع قوى للثقافة الاسلامية بما بها من جوامع ، ومدارس مختلفة ، ومن اشهر جوامع قوص الجامع العمرى الذى انشىء فى اوائل الفتح العربى لمصر ، وقد بلغت المدارس فى قوص " ١٦ " مدرسة من ابرزها المدرسة النجيبية ، التى انشأها النجيب بن هبة الله فى قوص ٦٠٧ هـ - ١٢١٠ م ، والمدرسة الغربية التى تقع على ساحل قوص ودار الحديث السابقية نسبة الى السابق والى قوص الذى امر بانشائها .

وكانت العلوم التى تدرس فى قوص فى ذلك الوقت هى علم القراءات والنحو الهندسة والفلك ، وازدانت قوص على اثر ذلك بالعديد من العلماء الاجلاء والفقهاء والمحدثين الذين هم فى الغالب ليسوا من اهل قوص ولكنهم مغربيون او من بلاد المشرق، وفدوا على قوص واستوطنوها لما كانت تتمتع به هذه المدينة آنذاك من شهرة واسعة ، ومكانة مرموقة ، وظلوا بها حتى نهاية تعليمهم ومن هؤلاء ابو جعفر الادفوى .

وقد كان الغرض من انشاء هذه المدارس هو تدريس فقه السنة على مذهب الامام الشافعى والامام مالك ، ومناوأة الشيعة وعقائدهم الباطنية التى بدأت تغزو الصعيد فى اعقاب القرن السادس الهجرى . وقد تخرج فى هذه المدارس الآلاف من العلماء الذين ملأوا بقاع العالم الاسلامى .. علما ونورا وقد كان لهؤلاء الصوفية جميعا اثرا عظيم فى النهوض بالحياة الروحية والسمو بها فى مجتمعهم الذى عاشوا فيه ، وذلك بما كانوا يملكونه من ربط وزوايا هى فى الواقع بمثابة المدارس التى خرجت فى الصعيد ، السالك ، والمريد كأبعد ما يكون ذوقا وسلوكا وقد زامل علماء اذفوا وخالطوا هؤلاء الصوفية فى قوص وكانت تربطهم بهم وشائج الاخوة والمحبة ، وقد انفصلت اذفو من اقليم الاعمال القوصية عام ١٨٩٥ م وانضمت الى اقليم اسوان .

واحب المؤرخ ابو جعفر الاذفوى الصعيد مسقط رأسه فانشد قائلا :

احن الى ارض الصعيد واهلها ... ويزداد شوقى حين تبدو قبابها
وتذكرها فى ظلمة الليل مهجتى ... فتجرى دموعى اذ يزيد التهابها
وما صعبت يوما على ملمة ... وشاهدتها الا وهانت صعابها
بلاد بها كان الشباب مساعدى ... على نيل آمال عزيز طلابها
وقضيت عفو العيش فى عرصاتها ... لذلك يحلو للفؤاد رحابها
مواطن اهلى ثم صحبى وجيرتى ... واول ارض مس جلدى ترابها

ان هؤلاء العلماء تشبهوا بأهل " الصفة " الذين هم من فقراء المسلمين اقعدتهم ظروفهم ايا كانت هذه الظروف عن السعى والكسب ، فأقاموا فى صفة المسجد ، وهى مؤخرة مسجد النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، لا يشغلهم أى أمر عن العبادة والاستغراق فيها ، اذا رزقوا .. اكلوا ، والا عبدوا فشبعوا وفى الحالتين شكروا وحمدوا ، واذا جاءهم الماء شربوا ، واذا حبس عنهم ذكروا من انحبسوا له ، فارتووا ، لا يسألون احدا ، ولذلك يحسبهم الناس من الاغنياء فهم دائما مع من بيده الامر ، فكيف يطلبونه من غيره ، يتجلى نور الايمان على وجوههم بعد ان فاقت به نفوسهم ، واثر العبادة الحقة واضحا على حالهم ظاهرا فى سيماهم ، هؤلاء الذين قال عنهم القرآن الكريم : " للفقراء الذين احصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الارض يحسبهم الجاهل اغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس الحافا " ٢/٢٧٣ .

ذلك مع الفارق ان اولئك الذين نتحدث عنهم انفقوا اموالهم فى سبيل العلم ، وتشبهوا بالسابقين فى النسك وحياة العبادة . وكما قال الاديب الشاعر " نصير الاسوى " :

وطائر الافنان افنانى اذا ناح فى السحر
وهاتف الأذان آذانى اذ نبه البشر .

الإمام المؤرخ .. الإدفوى

حينما يتعانق تاريخ العصور القديمة ، وتتعانق الحضارة مع تاريخ العصور الوسطى فى ادفو ، ينكشف لنا المستقبل الباهر المنتظر لهذا الاقليم ، لأن من ليس له ماض ، ليس له تاريخ أو جذور .

واقليم ادفو به جمع كبير من أهل المكارم والرياسة ، ومما قال احد ائمة ادفو انه عندما زار " ابن بشكور " وهو احد الولاة ـ البلاد خرج لمقابلته منها خلائق ممن له عدالة ورياسة فتعجب من ذلك قائلا : " ما ظننت ان يكون فى هذه البلدة مثل هؤلاء " !! " واهلها معروفون بالعفة والفقه ، موصولون بالصدق والتحرز فى الاقوال ، مشهورون باكرام الوارد واغاثة الملهوف ، واسداء المعروف ، ولما كان بها " مباشر " ، جامع الضرائب ـ يقال له الصفى ، اجحف بأهلها مدة ، فخرجت له شقفة فى ظهره ، فكانت سبب وفاته ، فأنشدهم الاديب الفاضل " علاء الدين على المفوني " هذين البيتين :

أهل ادفو عن يقين ... اهل معروف وعفه

الصفى جار عليهم ... راح مرجوما بشقفه

ذكر ذلك المؤرخ الصوفى " ابو جعفر الادفوى " المسمى كمال الدين وعد الله ابى الفضل جعفر بن ثعلب الادفوى الثعلبى

المؤرخ الاديب الفقيه الشافعى ، ينتسب الى عائلة الثعالب وكما قال المؤرخان " عبد الرحمن بن خلدون والنويرى " :
(ان الثعالب بطن من طيء من القحطانية كانت مساكنهم صعيد مصر) .

وقالت بعض المخطوطات النسبية ان الثعالبة هم ابناء على الكرار : " ان نسبة بنى هاشم اتصلت من ثلاثة رجال ، من بنى موسى ثعالب ، وعبد الله الجواد الاولان ابناء على الكرار والثالث من جعفر الطيار " .

ولد الامام الشيخ فى مدينة ادفو فى شهر شعبان عام ٦٨٥هـ - ١٢٨٤م وتعلم فى قوص ثم سافر الى القاهرة ، وسكن المدرسة الصالحية . عاصر عهود السلطان المنصور قلاوون والاشرف خليل والناصر محمد بن قلاوون وهو مؤرخ مشهور من اقطاب المتصوفة فى العصور الوسطى زمن الدولة المملوكية . اشتهر كتابه " الطالع السعيد " والمتحدث فيه عن جغرافية بلاد الصعيد وطبائع اهلها وعاداتهم وتقاليدهم ، ثم من النجباء وانسابهم فيها .

تتلمذ الشيخ على الشيخ (ابو حيان اثير الدين بن يوسف الغرناطى - احمد بن محمد بن احمد محى الدين القرطبى - منتصر بن الحسن الادفوى) وآخرين .

الف ابو جعفر الادفوى العديد من الكتب منها (فوائد ومقاصد القواعد فى علم الفرائض - والبدر السافر وتحفة المسافر) ترجمة لبعض شعراء القرن السابع الهجرى ، و(الامتاع فى احكام السماع) يبحث فى ضروب الغناء من حيث جوازه وتحريمه وتوجد اجزاء من هذه النسخ فى الفوطا ، وفينا ،والفاتيكان ومكتبة فاتح باستنبول ، وكتاب الامتاع لخصه الشيخ " ابوحامد المقدسى " واسماه " تشنيف الاسماع " ، والطالع السعيد ذلك الكتاب ، يعد سجلا حافلا لتاريخنا الفكرى ، وبعض تراجمه تمتاز بالاصالة ، فلا توجد فى غيره ، وانه كان المصدر والمرجع للحافظ بن حجر فى " الدرر " والصفدى فى " الوافى " وفى " النكت " وابن كثير فى " البداية والنهاية " والتاج السبكى فى " الطبقات الكبرى " والمقريزى فى " السلوك " وفى " الخطط " وابن تغرى بردى فى " النجوم " وابن دقماق فى " الانتصار " والسيوطى فى " حسن المحاضره " .

عاش الادفوى فى القاهرة ، ونذر نفسه للعلم ، واتخذ المدرسة الصالحية سكنا ، منه يتردد على الاشياخ ، ويتزود من مناهل العرفان ، قال البدر النابلسى : كان مشاركا فى علوم متعدده ، اديبا ، شاعرا ، ذكيا ، كريما ، طارحا للتكلف ذا مروءة " .

توفى بعد عودته من الحج عام ٧٤٨ هـ : ١٣٤٧م كما فى " الدرر " واكده الاسنوى فى " الطبقات " فقال : " مات قبل

الطاعون الكبير الواقع سنة ٧٤٩ هـ " وهو ما ذكره ابو الفلاح في " الشذرات " والشوكاني في " البدر الطالع " وارتضاه زيدان في " تاريخ آداب اللغة " والزركلي في " الاعلام " ، وكحالة في " معجم المؤلفين " وقال المقريزي في " السلوك " وابن تغرى بردى في " النجوم " والسيوطي في " حسن المحاضرة وحاجي خليفة في " كشف الظنون " ٧٤٩ هـ ١٣٤٨م وارتضاه علي مبارك في " الخطط " والبابانى في " هدية العارفين " .

ارخ الادفوى لاقليمنا ادفو قائلا : " بادفو نخيل كثيرة واشجار غزيرة ، ولحم غنمها اطيب لحوم الاقليم ، وبها براب في غاية العجب والارتفاع ، فيها صور مختلفة ، واشكال متنوعه وكتابة بالقلم البرباشي ، وعندما كان بعد سنة سبعمائة ، حفر صناع الطوب آبار لأجل ذلك فظهرت صورة شخص من حجر ، شكل امرأة متربعة على كرسي وعليها مثال شبكة وفي ظهرها لوح مكتوب بالقلم البرباشي ، رأيتها على هذه الحالة وكان التشيع بها فاشيا ، واهلها طائفتان ، الاسماعيلية ، والامامية ، ثم ضعف حتى لا يكاد ينبز به الاشخاص قليلة جدا ، وارضها واسعة الطول ، مسيرتها بسير الجمال يوم كامل وبعض اخر ،من كل جانب ، وبها جزائر كثيرة ، بها نخيل واشجار وغير ذلك " .

وقد انشد الادفوى مترنما بادفو :

لله ايام بادفو قد مضت ... بين الرياض اجيل فيها الناظرا
انى اتجهت رأيت ماء جاريا ... اجلو الهموم به وزهرا ناضرا
واشم من ريحانها وزهورها ... مسكا يفوح لنا ونشرا عاطرا
وبمائها وثمارها ولحومها ... مثل غدا بين البرية سائرا
لا اقفرت تلك الربوع ولا عفا ... مغنى بها بالجود اصبح عامرا

وتبقى لنا كلمة عن المؤرخ العالم ابو جعفر الادفوى وهى انه شريف علوى كما قال هو : " واخبرنى من وقف على مكتوب فيه اربعين شريفا خاصة ، وان مكتوبا اخر فيه سبعين شريفا دون غيرهم ، ووقفت انا على مكتوب فيه قريب من اربعين ، وفيه جمع كبير من بيت واحد مؤرخ بما بعد العشرين وستمائه " .

نستلهم من ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، " تعلموا من انسابكم بقدر ما تصلون به ارحامكم " . وايضا قوله " اربعة انالهم شفيعا يوم القيامة ، المكرم لذريتى ، والقاضى لهم حوائجهم ، والساعى لهم فى امورهم عند اضرارهم والمحبين بقلوبهم والسنتهم " .

ومما هو جدير بالذكر ان المدارس التى تعلم وسكن فيها المؤرخ ابو جعفر الادفوى ومنها المدرسة الصالحية هى المدارس التى انشاها " صلاح الدين الايوبى " للاهتمام بالعلماء ورعايتهم

من جانب وللقضاء على المذهب الشيعى الذى تفشى فى مصر نتاج الدولة الفاطمية التى كانت تؤمن به وتعمل على نشره . وقد عملت الدولة الايوبية بزعامة صلاح الدين على نشر المذهب السنى وهو مذهب الدولة الرسمى بواسطة العلماء خريجى تلك المدارس ، علما بأن ابو جعفر الادفوى تم دفنه بالقاهرة خارج مقابر " باب النصر " .

أبو الفقيه

ابو الفقيه هو الامام " محمد المتولى الادريس بن على بن احمد الادفوى " ينتهى نسبه الى الامام الحسن بن على ، وابن السيده / فاطمه الزهراء بنت سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

هو العالم الزاهد ، المقرىء المفسر ، النحوى ، ذكره الدانى فى طبقات القراء وقال " اخذ القراءة عرضا عن ابن غانم المظفر بن احمد بن حمدان وعليه اعتماده وسمع الحروف من احمد بن ابراهيم بن جامع ومن سعيد بن السكن ، سمع منه كتاب " السبعة " لابن مجاهد ، وسمع من العباس بن احمد ومن غيرهم وانفرد بالاماهة فى دهره فى قراءة نافع راوية ابن سعيد ورش ، مع سعة علمه وبراعته ، وصدق لهجته وتمكنه من علم العربية وبصره بالمعانى " .

وقد اخذ الشيخ النحو عن ابى جعفر النحاس وروى عنه ، وعن العباس ابن احمد الهمرى ، وابى العباس احمد بن ابراهيم .. وروى عنه احمد بن سهل الانصارى الطليطلى ابو جعفر ، يعرف بابن الحداد (ابو بكر الحداد) واحمد بن محمد بن محمد بن عبيده الاموى ، وروى عنه القراءة جماعة منهم محمد ابن الحسين بن النعمان ، والحسن بن سليمان شيخ الدانى ، ذكر ذلك الدانى ايضا ، وقال : اخذت عن عثمان بن سعيد بن حسان المقرىء ، قال : سأل رجل الشيخ الادفوى ابو الفقهاء عن مسألة فى القرآن ، وفى اعرابها ومعناها ، فاجابه بوجه فسره ، ثم قال : اتحب وجها آخر ؟ فقال : نعم ، فاجابه بوجه .. فسره ، ثم قال : اتحب وجها آخر ؟ فقال : نعم ، فاجابه حتى ذكر له عشرة اوجه ، فقام الرجل ، فقبل رأسه ، وانشده شعرا من قول ابى جعفر الادفوى او ما شابهه :

الا ان ارباب المعارف سادة ... سراتهم لله فى طيها نشر
هم القوم حازوا ما يعزوجوده ... وجازوا بحارا دونها وقف الفكر
اطاعوا اله العرش سرا وجهره ... فمكنهم حتى فدا لهم الامر
فهم فى الثرى فيض الورى معدن القرى ... وهم فى سماء المجد انجمها الزهر
فطف بحماهم واج بين خيامهم ... ولا تستمع ما قال زيد ولا عمرو
اذا طفت بين الحى تحمى وتتقى ... بأسياف عزم دونها البيض والسمر
ومن يعترض يوما عليهم فانه ... يعود ومن نيل المنى كفه صفر

وقد ذكره ابو يعقوب اسحاق القراب وقال : كتبت عنه بمصر وذكره الصاحب ابو الحسن القفطي في كتاب " النحاة" وقال :- كتبت عنه بمصر ، وذكره الصاحب ابو الحسن القفطي في كتاب " النحاة " وقال : كان خشابا بصعيد مصر (ادفو) وله تصانيف في التفسير والقراءة ، واللغة والنحو وغير ذلك ، ووقف المؤرخ ابو جعفر الادفوي على كتابه المسمى بـ" الاستغناء" في التفسير بمجلدات كثيرة ، رأى منه نسخة من عشرين مجلدا ويقال انه في ماشه او ما يقاربها ، ووقف له ايضا على مجلده كبيرة في النحو ، واخذ عنه الحوفي النحو وهو العالم المفسر.

كان الشيخ من العلماء الصالحين ، ممن يعتقد بركته ويزار قبره ، ويقال ان الدعاء عنده مستجاب ، وكما قال المؤرخ الادفوي : " رأيت شيخنا تقي الدين محمد بن احمد المقرئ الشهير ، وعنده الم وفكره ، ثم انه ركب دابة وتوجه ، ثم اجتمعت به بعد في بقية النهار ، فرأيته منشرحا ـ وقال لي " ركبت الدابة ، وقصدت الجبانة للزيارة والدعاء ، وتركت الدابة تمشي ولا اتعرض لها ، وقلت في اي موضع وقفت الدابة دعوت ، فلم تزل ماشيه الى قبر الشيخ الادفوي ثم وقفت ، فدعوت هناك وعدت ، وحصل عندي سرور ، ثم اجتمعت به بعد ذلك بيوم مناما ، وقال لي : قضيت الحاجة " ـ هذه كرامة من كرامات الشيخ وقد قال صاحب كتاب " التعرف لمذهب اهل التصوف " ، في الباب السادس والعشرين منه ما نصه : "(اجمعوا على اثبات كرامات الاولياء ، وان كانت تدخل في باب المعجزات كالمشي

على الماء ، وكلام البهائم ، وطى الارض ، وظهور الشيء فى غير موقعه ووقته ، وقد جاءت بها الاخبار ، وصحت الروايات ونطق بها التنزيل من قصه الذى عنده علم من الكتاب فى قوله تعالى : " انا آتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك " وقصة مريم حين قال لها ذكريا : " انى لك هذا قالت هو من عند الله " وقصة الرجلين اللذين كانا عند النبى صلى الله عليه وسلم ثم خرجا فاضاء لهما سوطهما وغير ذلك ، وجواز ذلك فى عصر النبى للنبى صلى معنى التصديق لكان فى غير غيره على معنى التصديق ، وقد كان بعد النبى صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب : ، حين نادى بن حصن الجبل .. الجبل وعمر بالمدينة على المنبر وساريه فى وجه العدو على مسيرة شهر والاخبار فى هذا كثيرة وافرة " وروى ابو داود فى سننه عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ان من عباد الله اناسا ما هم بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الانبياء والشهداء يوم القيامة ، بمكانهم من الله ، قالوا يا رسول الله ، : فخبرنا من هم ؟ قال : هم قوم تحابوا بروح الله على غير ارحام بينهم ولا اموال يتعاطونها ، فوالله ان وجوههم لنور ، وانهم لعلى نور ، لا يخافون اذا اخاف الناس ، ولا يحزنون اذا حزن الناس ، وقرأ هذه الآية " الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون " . اختلف المؤرخون فى مولد الشيخ ، فقيل فى سنة ثلاث وثلاثمائة ، وقيل خمس ، وقيل سنة اربع فى شهر صفر ، قال ابو محمد عبد الله بن على الدمياطى : وهذا اصح .

وتوفى :

بادفو يوم الخميس لسبع بقين من شهر ربيع الاول سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة . للشيخ ابناء ما عرف منهم (محمد النور- محمد الفاخر - محمد الفقير - ابو القاسم) وقد تفرعت منهم قبائل ادفو اما طبا او نسبا . وواحد من هؤلاء الابناء من المحتمل ان يكون " محمد النور " وينعت بالادفوى كلفه السلطان " الظاهر برقوق " سلطان الدولة المملوكية بامامة المسجد العمرى وشرح العلوم الدينية والفقهية فى صحنه ، وذلك كان فى السابع من ذي القعدة سنة ٧٩٢ هـ : ١٣٩٥م وهذا طبقا للوحة التى عثرنا عليها من الحجر الجيرى مكتوبة بالحفر وبالخط الثلث مكونة من سبعة سطور ، مبتدئه باسم الله ثم القاب السلطان الظاهر برقوق سلطان الدولة المملوكية ، ثم تاريخ امامة الشيخ الادفوى للمسجد الذى كان ذكره سابقا . والمسجد العمرى يرجع افتتاحه وتحويله الى مسجد الى اوائل الفتح الاسلامى لمصر ، وهو اكبر المساجد بادفو ، يصعد اليه بدرج ينتسب الى المساجد العمرية نسبة الى الصحابى الجليل . عمرو بن العاص " عبارة عن صحن تحيط به اروقة على نمط المساجد الجامعة فى عصر المصطفى صلى الله عليه وسلم ومبنى من الطوب اللبن . هذا المسجد كان معبدا فرعونيا فى العصور القديمة ثم اصبح كنيسة فى العصر الرومانى القبطى ، فصار مسجدا فى العصر الاسلامى ، ويستند الى سبعة اعمدة ما بين الفرعونية والرومانية .

اما ابو القاسم الادفوى فهو " عبد الرحمن بن محمـــــد بن على الادفوى " ينعت بأبو محمد وابو القاسم وهو من رواة الحديث الشريف وسمعه من ابى الطيب احمد بن سليمان الحريرى ومن والده محمد المتولى الادفوى وروى عنه ابوعبد الله محمد بن سلامه بن جعفر القضاعى القاضى .... عن الرسول قائلا : " ان الله تعالى يعطى الدنيا على نية الاخرة ، وابى ان يعطى الاخرة على نية الدنيا "

والجدير بالذكر هنا ان الشيخ يكنى محمد المتولى اى متولى شئون الاقليم وعمدته وايضا ابو الفقيه لكثرة علمه فى اصـــول الفقه والدين وهى بالفصحى " ابى الفقهـــاء " .

وبذلك ينتهى نسب عالمنا الجليل الى السيد / الريـــس بن عبد الله بن محمد حسن المثلث بن الحسن المثنى بن الحســن السبط بن على بن ابى طالب كما هو واضح من تقسيم النســـب الشريـــف .

نجـــرة النســـب الشريـــــف

" علـــى بن ابـى طالـــب "

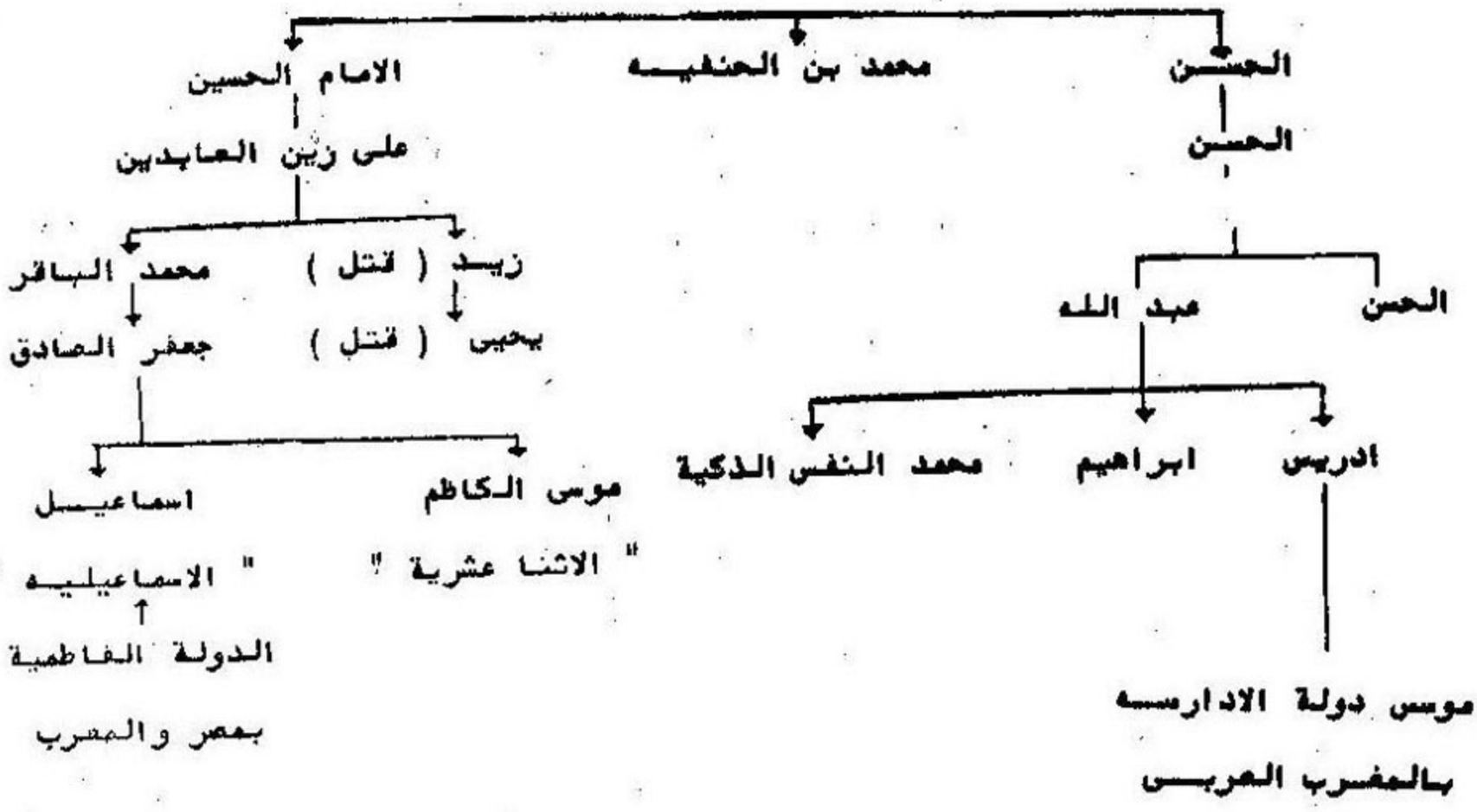

وبذلك ينتهى نسب عالمنا الجليل الى السيد / ادريس بن عبد الله بن زيد حسن المثل بن الحسن المثنى بن الحسن السبـط بن على بن ابى طالب كما هو واضح من تقسيم النسب الشريـــف .

منتصر بن الحسن الادفوى الطريزى

منتصر بن الحسن بن منتصر الشيخ ضياء الدين الكنانى العسقلانى المحتد الادفوى المولد والدار ، خطيب ادفو ، كان من اهل الخير والثقة والعدل والصدق والتحرز والتحرير سمع الحديث من الشيخ شمس الدين محمد بن ابراهيم بن عبد الواحد ابن على بن سرور المقدسى الحنبلى وابى عبدالله بن النعمان وغيرهما ، واشتغل بالفقه ثم ورد الى البلاد فقيرا من السعودية ، فصحبه وتصوف ومر رباطا بادفو .

كان كثير المكارم ، كبير المروءة والحلم ، يبذل نفسه وماله وجاهه فى حوائج الناس ، مشفقا على اهله واصحابه ، ومعارفه وجيرانه ، يسافر الايام الكثيرة فى مصالحهم ، ويدفع الضرر عنهم ، متبعا للسنة ، معظما لاهل العلم وطلبته ، لا يقدم عليهم احدا ، صحيح الاعتقاد ، وكان كل يوم جمعة يطلى الصبح يغلس ويخرج الى المقابر ، يزور ويقرأ ، ويدعو ما لايبخل بذلك ، ولا ينقطع عن صلاة الخمس مع الجماعة الا لضرورة ، وكان يحفظ مسائل الفقه والكلام ، ويحفظ تواريخ ويحفظ اشعارا كثيرة ، وحكايات مفيده عن العلماء والصلحاء وتراجم الناس وانسابهم ، وهو من احسن الناس خطابة ، يشجى سامعه بفصاحة وحسن ايراد وخشوع .

قرأ عليه الشيخ ابو جعفر الادفوى جزءا من كتاب " الشفا" وكان صحيح العقيدة ، سالما من البدع ، وكان حسن الخلق ، يزور المرضى ، ويشيع الجنائز ، ويشهد مقدم الغائب ويودع المسافر، مثابرا على ذلك الى ان كبر وهرم وضعف عن الحركة ، وهو يكلف نفسه ذلك ، ولا يخص الاغنياء والرؤساء بل يعم ، وكان جملة جميلة ، واخبرونى انه مازال يقرأ ويذكر الى ان توفى .

ولد بادفو عام تسع واربعين وستمائة وتوفى بها يوم الاربعاء ثامن عشر ربيع الاخر سنة اربع وثلاثين وسبعمائة .

عبد القادر بن مهذب الأدفوى

الامام العارف ، كان ذكيا .. جوادا متواضعا رحل الى قوص للاشتغال بالفقه ، فحفظ اكثر " التنبيه " وهو اسماعيلى المذهب مشتغلا بكتاب الدعائم . تصنيف النعمان بن محمد متفقها فيه ، وكان فيلسوفا يقرأ الفلسفة ويحفظ من كتاب " زجر النفوس" وكتاب " ابلوخيا " وكتاب " التفاحة " المنسوب الى ارسطو كثيرا . وذكر بعض الاصحاب انه تعسر عليه قفل باب فذكر اسما وفتحه ، توفى عام ٧٢٦ هـ .

علي بن صالح الأذفوي

هو الشاعر الذى ذكره صاحب كتاب " الارج الشائق " وانشد من شعره يمدح ابن حسان :

دعانى فداعى الهوى قد دعانى
وكفا الملام ولا تعذ لانى
فدمعى يبوح بسرى المصون
ووجدى بثوب الضنى قد كسانى
ايا قلب قصر عنك الهوى
فقد حل بى منك ما قد كفانى
وخذنى مديح اخى المكرمات
وخدن المعالى ورب المعانى
اليه فانى بقصدى له
امنت الانام وجور الزمان
واصبحت فى مدحه فى الانام
قوى الجنان جرىء البيان

علي بن أحمد بن الحسين

المنعوت علاء الدين الاصفونى ، كان من الاذكياء ، الادباء الشعراء خفيف الروح ، حسن الاخلاق ، كريما جوادا ، اشتغل بالفقه على الشيخ بهاء الدين القفطى ، وتادب على ابن الغضنفر الاصفونى والجلال ابن ثواق الاسنائى ، وغيرهما وله يد فى الحساب .

ويروى المؤرخ ابو جعفر الاندوى منه قائلا : " صحبته دهرا طويلا فرأيت منه كرما جزيلا ، وفعلا جميلا ، لطيف حتى كأنه خلق من النسيم ، يهوى الجمال المطلق ، فيأخذ بمجامع قلبه كل وجه وسيم ، لا يرى الا وهو لو ارتياح ، يميل طربا وسميل ، كما يفعل الغصن الرطيب عند هبوب الرياح وهو في الاداب فارس ميدانها ، وفي القصائد اخو احسانها ، اقام عندنا في اندو سنين كثيرة ، عندما كان والده شاهد ديوانها وكان الاجتماع به يذهب الاتراح ويجلب الافراح ، وكانت فيه فتوة ، ومروءة وانسانية ، والجأته المكارم الى الدخول في الخدمة السلطانية ، فما غيرته عن حاله ، ولا احالته عن جميل خلاله ، ولا انحرفت به الى الحيف ، ولا اطمعته في مطلوبها ، ولو ان الوقت سيف ، انشدني من شعره ، وذكر لي نبذا من نثره ، فما انشدني رحمه الله تعالى لنفسه :

يا هاجرين اما كفى هجران
ذل الهوى في الحالتين هوان
نمتم قريرين الجفون من الكرى
والطرف ساه بعدكم سهران
ما انعمت نعم عليه بنظرة
يوما ولا رقت له نعمان
بالله يا حادي اذا جئت الحمى
عرس فثم تعرس الاظعان

واستقبل الوادي بكل لطيفة

فعسى تميل لنحوه الغزلان

وقل المتيم جاءكم مستغفرا

ومن الاحبة يعرف الغفران

فاذا تصالحت القلوب على الوفا

فخذ الفؤاد فانه سكران

وعندما بلغه شعر الشيخ عبد القادر الجيلانى الذى اوله :-

مالى المناهل ظهل مستعذب

إلاولى فيه الالذ الاطيب

انا بليل الافراح املأ روحها

طربا وفى العلياء باز اشهب

فنظم صاحبنا علاء الدين وانشد فيه لنفسه قوله :-

ما فى الموارد مورد يستنكد

إلاولى فيه الامر الانكد

انا قنبر الاحزان املأ طلحها

حزنا وفى السفلى غراب اسود

وانشدنى له صاحبنا بدر الدين محمد بن على بن عبد الوهاب الادفوى وكان من خواص اصحابه وجلة احبابه ، مما ذكر انه انشده له قوله :

دعاها فداعى الهوى قد دعاها ... وكفا الملام ولا تعزلاها

فقد شاقها منزل بالحمى ... وقد ساقها للمغانى هواها

فإن سكرت من خمـــار الهـــوى

فزدها فان دواهـــا دواهـــا

ارحها فسائقهـــا وحـــدها

ومـل باللوى فالمعلى مداهـــا

وما راقها نزهـــة بالنقـــا

ولا شاهدت فى سواهـــا سواهـــا

تهيم اذا ذكرت طيبـــــــة

وتطرب ان فاح منها شذاهـــا

ففى طيبه كل ما تشتهـــــى

من العفو والامن من آل طـــه

بها احمد المصطفـــى نـــازل

فياليت كحل جفونى ثراهـــا

وعندما تولى " المعظى " توص وهو احد الولاة فى عـــام احدى عشرة وسبعمائة ، وكان بصره ضعيفا جدا ، حتى قيل انـه لا يبصر به ، وكان فخر الدين محمد ناظر الجيش قد قام فـى ولايتـه وجماعتـه ، فنظم علاء الدين قائـلا :

قالوا تولـى المعيـد اعمـى

فقـلت لا بل بألـف عيـــن

واشترى له ابوه كساء يتغطى به ، فطلبه منه شخص ، فاعطاه له ، فاشترى له ابوه كساء آخر فاخذه ، فقال ابوه : لا تقل الا اذا جاءتك من تحبها .. كيف تعمل ؟ فقال : اتغطى معهـا

بردائها ، فقال : اذا لم يكن معها رداء ؟ فقال : اقول لها : روحي الى الصيف .

وعندما طلع داود الذى يدعى انه ابن سليمان ومن نسل العاضد الى العيد فى سنة سبع وتسعين وستمائه ، وتحركت الشيعة ، وبلغ ملاء الدين انه قال لبعض اهل اصفون انه يتحمل عنه الصلاة ، نظم ملاء الدين هذه الابيات وانشدنيها لنفسه :

ارجع سنلقى بعدها اهوالا
لا عشت تبلغ عندنا آمالا
يامن تجمع فيه كل نقيصة
فلاضربن بهديرك الأمثالا
وزعمت انك للتكلف حامل
وكذا الحمار يحمل الاثقالا

جلس شاهدا بالوارقين بقوص ثم القاهرة ، وكان رحمه الله واسع الصدر ، كثير الاحتمال ، متواضع النفس ، وباشر شاهدا بنقاده وقف خدام الضريح النبوى ، عليه افضل الصلاة والسلام ، الى ان توفى بها فى شهر رمضان عام احدى وثلاثين وسبعمائة .

الشاعر بن عبد الوهاب

روى المؤرخ ابو جعفر الادفوى قائلا : ظهر فى ادفو عالم نجيب وشاعر ملهم هو محمد بن على بن عبد الوهاب بن يوسف بن منجا الادفوى ينعت بدر الدين ، اشتغل بالفقه على مذهب الامام الشافعى ، وقرأ ارجوزة فى الفرائض ومقدمة فى النحو ، وسمع الحديث بالقاهرة من جماعة ، من جملتهم ابن قريش . وهو من جملة الاذكياء ، جمع بين كثرة الحفظ وقوة الفهم ، يحفظ الابيات الكثيرة من سماع ، ويفهم المعنى الذى لا تكاد تستقل به الطباع ، مع كثرة اتضاع ، ولطف وانطباع ، واغاثة الملهوف ، واسداء جميل واصطناع معروف وبذل الجهد فى منافع احبابه واقاربه ، وافراغ الجهد فى حوائج اصحابه ، والقيام بمصالح من يرد عليه ، وايصال ما تصل قدرته اليه ، واشتغل بالتصوف ، ولبس من اهل الطريق ، وسلك فيه السلوك الذى به يليق ، وما خرج عن الطريق الشرعى ، والامر بالمعروف المرعى ، وبنى بادفو رباطا حسنا ، ووقف عليه وقفا مستحسنا ، وهو رئيس ذلك البلد ، والذى عليه فيه المعتمد ، بالاضافه الى انه ناظم ناثر ، وله من الادب الحظ الوافر وقد انشد هذه القصيدة :

فؤاد لبعد الظامنين تمزقا

وجفن جفاه نومه فتارقا

وانى على بعد الديار وقربها

لأحفظ للاحباب عهدا وموثقا

الا ليت شعرى هل الى الوصل عودة

وهل بعد هذا البعد يوما ملتقى

احبابنا عهد الوداد مجدد

واما سلوى يوم بنتم فاطلقا

سلوى محال عنكم وتصبرى

وحبى لكم مازال امرا محققا

يمثلكم بالفكر سرى لناظرى

فاذهل حتى احسب البين ملتقى

وكم بت والعين القريحة فيكم

ابى الدمع منها ان يكون له رقا

وها مهجتى ذابت وقلبى تقطعت

نياط قواه حسرة وتشوقا

ايا سائق الاظعان ان جزت بالحمى

فعرج على جيراننا بربى النقا

وان سألوا عنى فقف متفضلا

وقل قد قضى وجدا بكم لكم البقا

وانشد لنفسه ، وقد اهدى له شخص بطيخة ، فنظم هذين البيتين :

اهدى لنـــا من تحبـــه كرمـــــا

بطيخـــة جـــل قـــدر باريهـــــا

كأن من سكـــــر حلاوتهـــــــا

او عسـل او رضـــاب مهديهـــــا

وله قدره على الارتجال ، ورد عليه شخص مغربى ، كنيته ابو العباس وكان لطيفا ظريفا ، حسن الاخلاق وفيه فضيلـــة ، فحمل له يوما حـــال فقـــال :

قد هـــب من ذاك الحمـــى نسيمـــه

فقال بدر الدين : رنحها بوجدها قدومـــه

فقال ابو العباس : فظلهـــا ترفـــل فى اذيالـــها

فقال بدر الدين : لعلهـــا تحظى بمـــا تروقـــه

فقال ابو العباس : ما قصدها شعب النقـــا والمنحنى

فقال بدر الدين : ولا صبـــا نجـــد ولا شميمـــه

فقال ابو العباس : الا الذى لاح لـــها وجـــوده .

فقال بدر الدين : فأصبحت وقلبهـــا كليمـــه

لبس بدر الدين خرقة التصوف من الشيخ جلال الدين بن الشيخ علم الدين ابى الظاهر اسماعيل المنفلوطى ، وهو معتمد اهلهـــا واليه منتهى عقدها وحلهـــا ومولده فى سنة ثلاث وســـبعين وستمائة فى شهـــر المحـــرم .

زُفَر بن هُوَ مِن الادفوى

كان ذلك العالم فاضلا ، عارفا بالعلوم القديمة ، حكى عنه بعض الشيوخ انه كان هو واصحابه فى مكان يقابل احدى الجزر فى ادفو ومغنى يغنى فى عرس ، فقال بعض الجماعة : نشتهى لو اطربنا وحضر لدينا من الجزيرة ، فاعتزل عنهم لحظة ، واذا بالمغنى قد حضر عندهم وهم يشاهدونه وبيده المزمار ، وهو يغنى مارا على البحر !!

وكان ذلك فى العاشة السادسة .

الحسن النميري

الحسن بن ابى الحسن الادفوى النميرى الكاتب ، كان يعلم الصبيان الادب والخط ، له مشاركة فى النحو والادب وله نظم وكان الجماعة ينبسطون معه ويقولون " نُمير " هو القط ، وكان علاء الدين الاصفونى قصد الحجاز ، فعمل دقيقا فى شمال أى المخلاه ، فقطعها الفأر ، فكتب الى المكين قصة اولها :

" المملوك الدقيق يقبل الارض بين يدى ملك القطط ، النهر الاوحد والسنور الامجد ، والقط الارشد ، ازال الله عنه الضير وجمع له كل خير ، واحيا به قبيلة نمير ، وينهى من شرح حالى ، انى لما جردت من تحالى ، وحزمت فى شملتين ، وحفظت فى العين ، اجتمع على الفيران ، واطلقوا فى النيران ، وحشدوا من

كل مكان ، وتسلقوا من سائر الحيطان ، واكلوني من يميني وشمالي ، وقطعوا خيشي وشمالي ، واني لوجل موجود العدم ، معدوم الغنى ، لا يملك الا انا وسواله تجريدة سرية من القطط الشجعان ، الى مشايخ الفيران ، والله تعالى يجمع لملك القط ما يتخالى ، ويمده ما هطل نو ، وصال قط بنسو "

توفي بادفو في حدود عشرة وسبعمائة .

عبد الحق بن الحسن

هو الامام عبد الحق بن الحسن بن محمد بن علي بن مظهر بن نوفل الثعلبي الادفوي من القرباء الموئرخ ابي جعفر الادفوي وابن عمه ، حفظ كتاب الله العظيم ، واشتغل بالفقه على مذهب الشافعي ، واقام بقوص بالمدرسة ، ثم استوطن اسوان ، وتولى امانة الحكم بها ، والاوقاف والامامة بالمدرسة النجمية . وكان كريما مع فاقة جوادا ، كثير التعبد متدينا ، حفوظا ودا اصحابه ، مساعدا بما تصل اليه قدرته ، مصانعا للفقر ، صابرا راضيا توفي باسوان قال الادفوي يرثيه :

ابكي عليه وما انفك ذا الم

مدى الزمان وما انفك ذا شجن

وما تذكرته الا اهاج لي التذكار

نار الاسى والهم والحزن

الموسيقار ابراهيم قطب الدين

الموسيقار الشاعر الصوفى ابراهيم بن محمد بن علـــى بن مظهر بن نوفل الثعلبى الادفوى ، ينعت بقطب الدين ، كـان رحمه الله لطيف الذات حسن الصفات ، شاعرا ناثرا ، وكـان فى عنفوان شبابه يضرب بالوتـر ويغنى بين اصحابه غنـــاء يشجى السامع ، ويطرب المسامع ، ثم عكف على حفظ كتاب الله العزيز ، فاستحق به التميز ، واستمر الى آخر عمره علـى اقراء القرآن ، والانقطاع عن تلك الاقران ، ملازما للصـلاة والتلاوة والعبادة ، وسلوك الطريق الشاهدة لسالكهـا بالسعادة وهو كل يوم من الخير فى زيادة ، مع صدق لهجـة وصيانـة ، وامانة وديانة ، الا انه كان من اتباع الشيعة .

قال المؤرخ الادفوى : شاهدته عندما حضر داود الـذى يدعى انه ابن سليمان بن العاضد ـ الخليفة ـ الى الدفـو فى سنة سبع وتسعين وستمائة ، وهو بين يديه ، وقد اخـذا العهد عليه ، وهو ينشده قصيدة نظمها اولها :

ظهر النور عند رفع الحجاب

فاستنار الوجود من كـل بـاب

واتانا البشير يخبر عنهـم

ناطقـا عنهم بفصل الخطـاب

وقال فيه الادفوى :

وانى لارجو ان تكون وفاته

على حب ازواج النبى وصحبه

لتنفعه تلك القراءة فى الدجى

وتغشاه يوم الحشر رحمة ربه

توفى ببلده فى عام سبع وثلاثين وسبعمائة بعد ان كف بصره من سنين كثيرة ، وهو صابر ، شاكر على طريقة حسنه وكانت وفاته فى يوم عرفه .

الفيلسوف المؤتمن الأدفوى

هو مفضل بن نوفل بن جعفر بن يونس ، ينعت بالمؤتمن الادفوى كان فاضلا ، عالما بعلوم القدماء ، من فلسفة وغيرها وله ادب ونظم فمن مشهور قصائده التى اولها :

لطائفنا فى عالم القدس تسنح

وانفسنا فى عالم الانس تسبح

وقصيدته التى اولها :-

هل النفس الا نطفة من مشيمه

نمت بدم الاحشاء ثم نماء

وهل هو الا ظرف بول وغائط

ولو انه يطلى بكل طلاء